کامل محمد شجلان

سلطان العلماء

الاهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

الى صاحب النور الخالد . . .

أيها النبي العربي الكريم . . .

بجهادك فى سبيل الله ، بعثت أمة ، وأقمت دولة ، وأرسيت أسس حضارة حافلة بالامجاد والمفاخر ، وجعلت — صلوات الله عليك — من العلماء قواما على ميراث نبوتك ، خلقاء أن تكون بأيديهم مقاليد الفتح والهداية والنهوض .

وهذا قبس من نورك الخالد ، قد ضاءت به صفحة من تاريخ مصر المسلمة ، ومن حياة علماء الاسلام فى الشرق .

فألى مقامك العظيم ، ارفع هذا القبس . . .
رجاء أن ينزل هذا الجهد المتواضع من عمل
منزلة حسبي بهـــا مـــن ثواب . . . . .

المؤلف

كامل محمد عجلانه
مدرس الأدب والبلاغة بالا

صورة المؤلف ... للذكرى

موقف الازهر

من أدب المسرح

. . . الأزهر الذى تعهد الإسلام ولغته ، وأفنى القرون وما بليت جدته ، ولا وهنت قوته . . .

الأزهر الذى تخطى (الألف) وهو يحمل أعباء الثقافة الدينية والاجتماعية، ويرسل الثورات السياسية ، ويرفع الراية فى الكنانة دون أن يخبو مشعله الذى أضاء المشارق والمغارب من كل مدرج لهجت فيه الألسن. ونادى مؤذنها: (الله أكبر.... الله أكبر .. أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله . .)

عرف الأزهر . . والعام الذى يقرع عليه غلاف الزمن يسجل فى دقاته أنه منتصف القرن العشرين الميلادى الذى تعلم المصريون فيه أساليب الكفاح السياسى الثائر والبيان الأدبى المجدد والخلق المبتكر فى ضروب الحياة ومطالب الأحياء .

الأزهر وبيمينه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير يقول : « نحن نقص عليك أحسن القصص » . .

الأزهر كان وكان أبناؤه أحق بالسبق فى ألوان القصة لو أن المقتضيات طوعت له الإسراع فى الأخذ بأسباب « التجديد »

ولكنه آثر التريث ، وترك للنابهين من أبنائه أن يذهبوا فيرتادوا ما لذ لهم وما أسعدهم به استعدادهم ، وظل هو فى خطاه البطيئة صامتا وربما خرج فى أوقات عن صمته « بلاه » - يستنكر. وليته خرج فى زينة تلقاها أبناؤه النابغون ، فصفق لهم ثم قال: (نعم) . قد كنت منذ خمسة عشر عاما أختم حياتى الدراسية ، وأستقبل عهدا يحملنى أمانة منها مطـــالب المدرس ومشاق التدريس .

بلوت الأزهر والأزهريين ، وطالعت المؤلفات واختلطت بالمؤلفين ، وشاركت فى الصحافة وزاملت الصحفيين

والأزهر والأزهريون يجدون فى خطوات ويحلقون فى آفاق وينمون نتاجهم إلا فى أودية القصة ومطالب « الفن » الرفيع قديمه وجديده . فشرعت فى مزاولة بعض الجوانب القصصية على قدر ما يتسع له وقت المدرس[1]

---

(١) ألفت « أميرة الغناء » و « عشاق العرب » و « مائدة السمر » و « غادة الهودج » و « صريع المجد » و « اللحن الخالد » غير أقاصيص وتمثيليات طبعت وأذيعت واستقبلهـــا الأدباء بقبول مشجع وارتضاها القراء .

لكن الأزهر . . سامح الله من أعزهم فيه ، كان بعض رجاله يقولون عنى : أما كان أولى به أن يصرف بيانه وجهده الى غير هذا الوجه ؟ . وقلت : اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون . وعند الصباح يحمد القوم السرى .

وأخيرا ومن عام تكونت من بين فرق النشاط فى الأزهر (فرقة التمثيل) وكانت لها محاولات أقرها المسئولون فى الأزهر

وفى المحاولة الأخيرة رأى الشيوخ من العار أن يكون الممثلون من أبناء الأزهر ولا يستطيع الأزهريون أن يظفروا بمؤلف من بينهم يعتزون به ، وهم من علموا الدنيا البيان .

وكانت هذه أول مؤاخذة ضقت بها ، وهيهات أن نجد الاعتذار عنها أو نجيد التملص من تبعات التقصير فى ميدان القصة .

عرف الأزهر أن القصة بأنواعها ثوب يغرى وهى أداة المصور . وهى من أنجع وأوفى وسائل الدعوة والعظة وإرسال الرأى وإحياء المجد وإذكاء العاطفة

كل ميدان فى الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد لا يجد المجلى فيه أشد عونا من القصة ولا أفتن من معارضها ، ومنها التى اتخذت طريقها ومنبرها المسرح . والأزهر له تقاليده والمسرح مطالبه وأدب المسرح وفن الإخراج

ووسائل الابداع للفنى وغير هذا من دوافع التصوير الصادق فى التعبير عن الحياة قديمها وحديثها لا ينسى حظ المرأة فى القصة ولا فى المسرح

ولكن الأزهر أنكر ظهور المرأة على المسرح، وظن أن الجموح المشاهد الآن فى المسارح من مقومات التمثيل ولوازمه ، والحق أن ذلك ليس من الفن فى قليل ولا كثير ، وقال بعضهم لا بأس بالمرأة أما أو مستترة وقال الأكثر . (حرام ثم حرام)

وجاء الرفاق على لهفة والحاح فى أن أكتب لهم قصة تنفض عن الأزهر وعنهم مسبة الافلاس الفنى ونضوب القرائح الأزهرية وقعودهم عن محاولة التأليف فى القصة فضلا عن المسرحية

وعرفت ضيقهم من القيود وتململهم من الوقوف عند التمثيل الأعرج، وأعنى به جانبة التمثيلية الكاملة التى تعالج الحب والبغض والتقوى والفجور والرفعة والضعة فى مختلف الحياة والأحياء من ذكر وأنثى — ولم أرد أن أكون شجى وحمدت لهم صبرهم وكفاحهم وقلت لهم (مع اليوم غد) وما لا يدرك كله لا يترك كله . .

وعلى ما أكظم من ألم قبلت بعد أن أفكر ثم أختار ثم أكتب، ولم يغرب عن حياطتى أن الرواية لا بد أن تكون أزهرية

لحما ودما وأن تناسب الملابسات وإلا لقيت الفرقة ومؤلف القصة عقبة بل عقبات .

وإني وقد قدرت لقلمي موضع خطواته لا يسعني إلا أن أصف عملي بأنه تضحية أرغم فيها على أن تختار مكرها مجافاة للعنصر النسوي ومباعدة الطرائف التي تقضي بها مطالب المسرح المحدث ، وحسبي أن أتمثل بقول الأول :

ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وأن أردد قول الآخر :

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا علي ولا ليا

* * *

موضوع المسرحية

يجرى موضوع المسرحية فى فترة تعرض الشرق فيها لأعاصير التتار وزوابع الصليبين وكانت مصر هى الحصن الذى رد عن الاسلام والمسلمين جائحات المغول والصليبين، وكانت مصر الملاذ وفيها ومنها دوى صوت النصر بعد أن تفرقت الشام وسقطت بغداد وأضعفت الأطماع منة السلاطين من خلف صلاح الدين .

(وسلطان العلماء) هو الذى نفث وقوم وقوى روح الوطنية بعد أن انهارت الخلافة وأريقت الدماء وبدد الشمل وتفرقت الكلمة فى ربوع الشرق .

وبهذا السلطان ، وعلى يد بطله شيخ الاسلام ، قامت الدعوة لتوحيد الكلمة وضم صفوف العاملين لمطاردة التتار ورد غائلة الاوربيين حتى يحفظ الإسلام وتراثه ويحمى الشرق وأبناؤه. وإنه لسلطان مشرف ذاك الذى جمع القوى والجهود ، فكانت موقعة « عين جالوت » التى أعزت الشرق والاسلام .

وفى عهدى الأيوبيين والمماليك كان للفقهاء زعامة شعبية استحقوها بشخصياتهم وعلمهم، مما جعلهم أصحاب الكلمة النافذة والرأى الذى يخضع له العامة والحكام .

كان المصريون طوع . توجيه الفقهاء والمتصوفة الذين لم يكتفوا بالسيطرة الروحية ، وإنما وقفوا موقف الحاكم غير الرسمى من التزعم والاصلاح والدفاع عن الحقوق والمساعدة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وكان لهم الحق، لأن العلماء اشتركوا فى الحرب الصليبية ، واعتمد عليهم الملوك والسلاطين ، فاستحقوا الزعامة الدينية والاجتماعية وصدارة الحركات السياسية . ومن أمثل العلماء سلطانهم العز بن عبد السلام الذى أدرك مغرب دولة الأيوبيين ومشرق دولة المماليك .

قيود وأهداف

وقد حملت قلمى على أن يخضع لصادق الأحداث التاريخية وما أثور الأقوال على لسان الابطال ، وتخيرت من العلماء والسلاطين والامراء من كانوا مثار الكفاح ومن خطت بأعمالهم صحائف النصر وقاوموا الذين أساؤوا بأطماعهم إلى الوطن وجروا على بلادهم عناء الضعف حين استسلموا لوعود الأجنى .

ولم أخضع قصتى لموجبات « العمل » الذى لا يكترث بحق المأثور وينكر تقاليد العصر وطبيعة حياته ، وصورت الأشخاص وكلهم من التاريخ بما قدموا من آثار وما خلدوا من جهد ، وأنا من ورائهم أنسق أحداثهم مع دقة واحتيال حتى أخضعها للوضع

التمثيلى ، وراعيت البيئة التعليمية الأزهرية، وحرصت على إظهار قوة العلماء وتصوير المقاومة المنتجة والتى كانت ولا تزال شاهدة بما لمصر والمصريين من أياد على الشرق والعروبة والإسلام . وخطتى فى القصة التاريخية التقيد بالوقائع والملابسات الموضعية والزمنية وتخـــير (الإطـارات) من العوامل المحيطـة بغير اختلاق .

وكذلك أجريت القلم مع سلطان العلماء محللا لوازم عصره فى أسلوب العرض المعالج ، وبتحريك الأشخاص فى علائقهم ومنازعهم السياسية والاجتماعية والدينية ، ويكفى من الجهد أننى كنت أمينا على ما خلفه التاريخ الصادق وما حفظه لأبطال القصة من مأثور القول ومروى التعبير ، مجانباً زيف التوشية وبهرج التلفيق مما يبعد الصورة عن مطابقة واقع حياتها التاريخـــية وخصائص أبطالها الماضين .

الزمان : نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجرى

المكان : دمشق ـ الكرك ـ القاهرة

الاشخاص

١) عز الدين بن عبد السلام
٢) أبو عمرو عثمان بن الحاجب
٣) سيف الدين قطز
٤) الصالح نجم الدين أيوب
٥) ابن دقيق العيد
٦) الصالح إسماعيل
٧) الناصر داوود
٨) بيبرس البندقدارى
٩) أبو الحسن الشاذلى
١٠) عبد العظيم المنذرى
١١) شرف الدين عبد اللطيف بن العز

« نكرات قصصية »

قسيس ـ نائب سلطنة ـ خادم الشيخ ـ طلاب ـ دراويش ـ جنود ـ عسس ـ رسل

قال التاريخ : عن شخصيات المسرحية

عز الدين بن عبد السلام .. ابن أبي القاسم بن حسن بن محمد ابن مهذب السلمي ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة بالشام وتفقه على ابن عساكر وأخذ الأصول عن الآمدي وبرز في الفقه والأصول والعربية .

قال الذهبي : انتهت إليه معرفة المذهب مع الزهد والورع وبلغ رتبة الاجتهاد .

ولي خطابة جامع دمشق سنة ٦٢٧ هـ وعزل سنة ٦٣٨ هـ وحبس بالقلعة وقدم إلى مصر سنة تسع وثلاثين وستمائة فأقام بها ناشراً للعلم آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر .

وسبب خروجه من الشام أن سلطان دمشق استعان بالفرنجة وأعطى لهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف فأنكر الشيخ ذلك وترك الدعاء له في الخطبة ، وساعده في هذا أبو عمرو بن الحاجب فسجنهما السلطان ثم أخرجا من السجن ، وفي طريقهما أرسل إليهما صاحب دمشق يتلطف ليرجع الشيخ ، فقال للرسول الذي طلب منه أن يعتذر للسلطان : « ما أرضاه يقبل يدي فضلاً عن

أن أقبل يده ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد » .. ولما وصل مصر تلقاه الصالح نجم الدين أيوب بحفاوة لائقة، وولاه القضاء .

وكان فى أخلاق الشيخ شدة وفى لسانه حدة وفى رأيه صرامة مع ورع ونزاهة وشجاعة ، لا يثنى عن تنفيذ ما يريد .

وبعد أن تولى القضاء صمم على بيع أمراء المماليك من الأتراك وإدخال ثمنهم فى بيت مال المسلمين لأن حكم الرق مستصحب عليهم ، وقد غضبوا وهم بعضهم بقتله ، وحسم السلطان الأمر فدفعوا ثمنهم له وصرفه الشيخ فى وجوه الخير والبر ومصالح الناس ، وكثيراً ما عزل الشيخ نفسه من القضاء ، واقتصر أخيراً على التدريس فى المدرسة الصالحية التى بناها الصالح نجم الدين بين القصرين .

قال عنه تلميذه ابن دقيق العيد : كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء

وقال عنه ابن الحاجب : العز أفقه من الغزالى .

وقال ابن كثير فى تاريخه: «انتهت إليه رياسة المذهب وقصد بالفتوى من سائر الآفاق ، وكان فى آخر أيامه لا يتقيد بمذهب» . وله مؤلفات عدة . وكان صريحا ، أفتى مرة وظهر أنه أخطأ

فأرسل مناديا فى مصر والقاهرة ينادى من أفتى له ابن عبد السلام فلا يعمل به لأنه خطأ ، وكان حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار لذيذ الحديث يحضر السماع مع القوم وربما رقص، وكان لطيفا .

وعاش حياته يقاوم البدع وأبطل صلاة الرغائب ونصف شعبان . وكان يعطف على العامة ويغلظ للحكام فى سبيل الله ودينه .

وأهدافه وحدة المسلمين وصد غارات التتار والصليبيين ، وفى سبيل هـــذا فارق دمشق إلى مصر وأمضى بها عشرين عاما، منها اثنا عشر فى حكم المماليك الذى بدأ بأيبك التركمانى وعاش بعد سقوط (بغداد) أربع سنوات وأمر بهدم طبلخاناة أحد نواب السلطنة لأنه بناها فوق مسجد بالقاهرة ثم أسقط النائب وعزل نفسه ، وكان يعارض شجرة الدر فى توليها الملك ، ويمانع فى جمع الضرائب الكمالية ، وهو الذى نصب (قطز) سلطانا على مصر . ومات سنة ٦٦٠ هـ فى عهد بيبرس البندقدارى .

ابن الحاجب :

شيخ المالكية أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمرو المصرى كان والده جنديا من الأتراك . ولد باسنا سنة ٥٧٠ هـ وعاش ٨٥ عاما ذهب إلى دمشق فى سنة ٦١٧ وزامل العز بن عبد السلام وعاونه فى مقاومته وجادل العلمـــاء الذين انضموا إلى صاحب دمشق وسجن مع صاحبه فى سجن القلعة ثم رحل معه إلا أنه تخلف فى الكرك عند الناصر داود ليتم تأليف الكافية ثم لحق بالعز فى مصر ومات بها سنة ٦٤٦ .

كان متواضعا يحتمل الأذى وهو ركن من أركان الدين والعلم عرف بالذكاء ودقة الملاحظة وبعد الأناة وعفة اللسان .

سيف الدين قطز :

ينسب إلى أسرة جلال الدين بن علاء الدين خوارزم شاه ، اختطف صغيراً وجيء به من بلاد الأكراد هو وأطفال من أسرته ثم بيع فى سوق دمشق ثم فى سوق القاهرة وتقلبت به الظروف إلى أن أهداه الصالح أيوب لكبير مماليكه عز الدين أيبك التركمانى الذى تزوج شجرة الدر وكان (قطز) مخلصا صادقا أمينا وفيا لدينه وللشرق وفى نفسه حزازة من التتار الذين قوضوا

عرش أسرة جلال الدين الذى مات مشرداً فى القرى الكردية بعد جهاد عشر سنين .

فى دمشق يحضر مجالس العز ويخلص له وينصح عن أمانيه وذات نفسه ، ساعد عز الدين أيبك التركمانى فى السلطنة . ولما قتلته شجرة الدر عمل مع المماليك على قتلها وتولية ابن أستاذه بأشرافه ثم تخلص منه وبمعاونة شيخ الاسلام تقليده على المماليك وتولى سلطنة مصر ٦٥٧ هـ ولقب بالملك سيف الدين قطز وبعد أن استرضى بيبرس البندقدارى وأقطاعه « قليوب » عمل على إرسال جيش لمحاربة التتار بقيادته وهزمهم فى عين جالوت وقتله بيبرس فى طريق عودته إلى مصر .

الصالح نجم الدين أيوب

هو ابن الملك الكامل سلطان مصر الذى عهد لولده العادل ثم لولده الصالح نجم الدين حكم مصر عشرين عاما بعد أن طرد منها أخاه العادل وكان صغيرا .

والتاريخ يذكر أن نجم الدين كان شعلة من النشاط عمر القاهرة وبنى المدارس الصالحية بين القصرين وشيد قلعة الروضة وأكثر من المماليك وجعل منهم خاصته وبطانته وضبط الأموال

وأعاد لمصر هيبة سلطانها. وفى سنة ٦٤٣ سار إلى دمشق وهزم الصالح إسماعيل وضمها إلى مصر ثم استولى على غزة وبلاد الساحل. وكان يحب شجرة الدر ويكرم المماليك الذين دافعوا عنه حين اعتقل هو وجاريته عند قدومه من دمشق للاستيلاء على مصر . توفى سنة ٦٤٧ والحرب دائرة بين المصريين والصليبيين . وكان يكرم العز ويهيب مكانته ويضيق بكثرة اعتزال الشيخ مناصب القضاء وتقديه لكبار المماليك ، ولكنه ما كان يستطيع الوقوف أمام رغبة للشيخ لمكانته الدينية وزعامته الروحية ، وسيطرته الشعبية .

الصالح إسماعيل

استولى على دمشق من سنة ٦٣٧ - إلى ٦٤٣ بعد أخيه الأشرف . كان مندفعاً . مالأ الفرنجة وتنازل عن صيدا وطبرية وسائر بلاد الساحل، وأذن للفرنجة بدخول دمشق وشراء الأسلحة وآلات الحرب مما أحنق العز وابن الحاجب وأغضب العامة، وكان قد ولى العز خطابة الجامع الكبير بدمشق ، ولما ثار الشيخ عزله وأمر بسجنه هو وصاحبه ضيقا بهما وباتصالهما بصاحب مصر الصالح نجم الدين أيوب .

الناصر داود صـــاحب الكرك :

ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ولد سنة ٦٠٣ وشبه فى طلب العلم ، وكان ذكيا بعيد النظر تتلمذ على العز وكان يحب ابن الحاجب ولا يميل إلى الصالح أيوب. استقبل ابن الحاجب والعز فى رحلتهما إلى مصر وجاملهما واستبق ابن الحاجب فى ضيافته ، ورغب إلى الشيخ فى أن ينضم إلى نجم الدين ابن عمه ليعاونه فى إزالة مفاسد عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق .

وله موقف ضد الفرنجة أبلى فيها بلاء حسنا وكان يحافظ على إمارته من صاحبى دمشق ومصر. ويذكر التاريخ أنه تولى إمارة الكرك حينما ضاقت به دمشق سنة ٦٢٦ وبقى أميراً إلى سنة ٦٤٧ وانتهى ملكه بخديعة من أهله وتشرد فى البلاد إلى أن مات .

ابن دقيق العيد - أبو الفتح تقى الدين ابن مجد الدين القشيرى المصرى — كان يلقب بتقى الدين ، ولد فى البحر المالح وكان والده فى طريقه الى الحج من قوص الى مكة وهو من أكابر العلماء كان حافظا زاهداً ورعا مجتهداً حسن الاستنباط من كتب السنة، تفوق فى العلوم العقلية والنقلية . سمع بمصر والشام والحجاز — وكان من تلاميذ الشيخ العز تاقى عليه

العلم سنة ١٩٢٥ وكان ذكيا شاعراً طلق اللسان قال عنه العز: إنه مفخرة مصر ، ولقد شرح مختصر ابن الحاجب وعاون أستاذه العز ولازم مجلسه وانتفع الشيخ بنبوغه المبكر .

بيبرس البندقداري

وكن الدين بيبرس البندقداري قاهر الصليبيين هو أحد المماليك الذين زاملوا « قطز » ولكنه كان طموحا شرها نهازاً قويا يحب الصيد، ولا تقف أطماعه عند حد .

ولما قويت مكانة قطز بفضل الشيخ العز رحل الى الشام ، ولكنه وجد سلطانها يكاتب هولاكو فدبت فيه حمية الوطنية والغيرة على الإسلام والمسلمين، وقال : إن قتال التتار واجب ، فرجع إلى مصر حرصا على أن ينضم إلى سلطانها وإن كان منافسا له ، لأنه يفضل عدم الانضمام إلى من يمالئون التتار، وكانت الخلافة قد قضى عليها التتار، وكان سلطان مصر قطز . والولاية فى حلب ودمشق للناصر عبد العزيز وفى الشوبك والكرك للملك المغيث ابن العادل وهو حرب مع صاحب دمشق . وخير الطرق كانت عنده التعاون مع زميله السلطان سيف الدين قطز ليشفى نفسه من القضاء على التتار ، وقد أبلى بلاء حسنا فى موقعة عين جالوت ، وانتهى به الأمر الى الاستيلاء على مصر ، وكان يخاف العز ، وروى أنه قال يوم أن رأى جنازته تسير على

الأعناق، وكان واقفا فى شرفة القلعة : «اليوم استقر ملكى ..»

أبو الحسن الشاذلى

شيخ الطريقة الشاذلية هو تقى الدين أبو الحسن يتهى نسبه الى سلاطين العرب ، ولد باحدى قرى إفريقية سنة ٥٩٣ هـ وكان كثير الترحال بين مصر والحجاز وتونس . التقى سنة ٦٤٠ - بأبى العباس المرسى بعد أن تلاقيا فى تونس وفى سنة ٦٤٢ وصلا معا إلى الاسكندرية وقبض عليهما هناك ثم أطلق سراحهما ، ومكث الحسن يدرس فى جامع العطارين، ثم رحل الى العراق فتلقى دروسا فى الصوفية، وكان كلما مر فى طريقه من الحج الى الاسكندرية اتصل بالعز ونزل فى (خانقاه الصوفية) بالقاهرة والتقى بالعلماء الذين كانوا يلتقون بالعز ومنهم ابن دقيق العيد والحافظ المنذرى .

وكان ضريراً متواضعا جريئا مات فى صحراء عيذاب سنة ٦٥٦ وحزن عليه العز ، ومما يذكر أنه حج فى عام من الأعوام، وعند عودته الى مصر قابل العز وقال له :

« إن الرسول يبلغك يابن عبد السلام تحياته » .

عبد العظيم المنذرى

هو زكى الدين أبو محمد عبد العظيم المنذرى حافظ الديار المصرية أكرم العز وحضر مجالسه وامتنع عن الفتيا عندما قدم العز من الشام إلى مصر ، وكان قليلا ما يخرج من مدرسته ، ولد سنة ٥٨١ وعليه تخرج تقى الدين بن دقيق العيد ، وتوفى المنذرى سنة ٦٥٦ وكان أديبا ورعا عالما بالفقه واللغة

شرف الدين عبد اللطيف بن العز

كان شجاعا ذكيا ظل يناصر والده ، ويتلقى العلم عنه وعن علماء مصر ، وظهر شأنه بعد والده .

الفصل الاول

فى ضاحية من دمشق ، يقع منزل العز ، فى حديقة مسورة ، تفضى إلى فناء به منضدة وكراسى ، ينتهى بحجرتين : إحداهما للإملاء ، والأخرى للمجلس الخاص . وهنـــاك ممر خلفى متصل بالفناء

الطالب الأول : [يلقى حافظته على كرسى مجاور له] « إن مع العسر يسرا »

الطالب الثانى : وما اشتدت أزمة إلا انفرجت

الطالب الأول : أين أستاذنا « العز »

الطالب الثانى : أريد أن أسألك عنه . لقد شاقنى حديثه

الطالب الأول : مارأيت أستاذى من ليلتين ، وأكاد أجن .

الطالب الثانى : يا أخى إنك لجاحد فضل شيخك . ليلتان ؟ ياعجبا كل العجب أنا لم أره منذ الصباح وأرى ذلك كثيرا

الطالب الأول : والله ما كان عن قلى ولا عن تشاغل

الطالب الثانى : أظنك منعك بعد الشقة ، وقد انتبذ شيخنا

شيخنا وما يبديه من رأى وما يرسله من توجيه .

الطالب الأول : والآن . ماذا نحن صانعون ؟

الطالب الثالث : لا شيء إلا أن نلتمس الشيخ ونضع جهودنا تحت تصرفاته .

الطالب الثاني : جهودنا؟ وهل لجهودنا بقاء ؟ لا بد من لم شعثنا ودعوة الطلاب جميعا والمريدين والعاملين من الأحرار والأباة .

الطالب الأول : والشيخ ، أين مكانه ؟

الطالب الثاني : لا بد من الرجوع إليه فيما نصنع . ولابد من إلهاب الحماس فى نفوس الشباب

الطالب الثالث : الشيخ قد نفث فى دمشق من روحه، وكلنا فى انتظار الدعوة إلى الوثبة

الطالب الأول : سمعت من الشيخ مايشبه اليأس من دمشق إنه يرقب اليوم الذى يجند فيه الجنود بالقاهرة .

الطالب الثاني : القاهرة أين منا عون القاهرة؟ إن الشيخ يقاوم الرجعية فى دمشق ويكافح الخطر المطل علينا

بمنزله هذا المكان القصى فى ضواحى دمشق

الطالب الأول : يخيل لى أنك لا تدرى ما أهم الشيخ ولا ما يشغل باله من جديد الأحداث

(يدخل طالب ثالث)

الطالب الثالث : السلام عليكما .

الطالب الأول والثانى : وعليك السلام . أعندك الخبر اليقين ؟

الطالب الثالث : عن ماذا ؟

الطالب الأول : عن شيخنا العز

الطالب الثالث : لا أجيب المتخلفين

الطالب الثانى : بحقك إلا أجبت . بحق الشيخ .

الطالب الثالث : أين كنتما ؟ منع الشيخ من إلقاء محاضراته (بمدرسة الغزالية) وضج مريدو الشيخ وثارت دمشق وأنتما فى غفوة ؟

الطالب الأول والثانى : (فى دهشة) الويل لنا، لقد كنا فى غفلة عن هذا

الطالب الثانى : كنت أمضى غير عابىء بما يدور فى الأسواق لأن دمشق وأحسب بغداد وأظن مصر وكل من يعنيه شؤوننا داثب الحديث عن

من غوغاء «الفرنجة» ويدفع بنا الى منافحة
غوائل التتار : هنا فى دمشق . وتحلم أنت
ويطير خيالك إلى القاهرة ؟

الطالب الثالث : أنت لا تعرف
الطالب الأول : ومن الخير ألا يعرف . حتى لا يذاع
ما يجرى فى الخفاء .
الطالب الثانى : سامحك الله ما أنا وإشاعة ما يملأ الأسماع
ويدوى فى الأمكنة والبقاع
الطالب الأول : رغبة الشيخ فى عون مصر والمصريين ؛
الطالب الثانى : نعم جاءته الرسل والطلاب وزيارات ....
الطالب الثالث : زيارات من ؟
الطالب الأول : صـــه
الطالب الثالث : زيارات من ؟ قل لى بربك
الطالب الثانى : زيارات (نجم الدين أيوب) للشيخ ومجالسه،
هو وعمرو بن الحاجب شيخ المالكية
الطالب الأول : قل لى . وهل بلغ ذلك صاحب دمشق ؟
الطالب الثانى : بلغه وأخذ حذره وشق عليه
الطالب الأول : أيضيق الصالح إسماعيل بابن أخيه

وينفس عليه اتصاله بالشيخ؟

الطالب الثانى: إنه حب الذات وطلب السيطرة

الطالب الأول: لم يفكر صاحب دمشق فى رد التتار وإزالة كابوس الفرنجة

الطالب الثانى: إن التناحر القائم بين الولاة والسلاطين من نسل صلاح الدين هو الذى لين قناتهم وأطمع أعداء الشرق.

الطالب الثالث: (تسمع جلبة) ما هذه الضوضاء؟

الطالب الأول: صوت مألوف

الطالب الثانى: تكاثر المحتاجين من فقراء دمشق حول منزل الشيخ

(يدخل ابن الشيخ مندفعا فى غرارة)

عبد اللطيف: أبى. أبى. (يتوقف ويتحير الطلاب) أين أبى؟

(يتقدم إليه الأول ويقترب منه الآخران)

الطالب الأول: هل مررت بخلوة والدك يا عبد اللطيف؟

عبد اللطيف: ظننته بالحديقة بعد أن بحثت عنه فى حجرة النسخ وغرفة الأمالى

. . . . . (تتعالى الأصوات) : . . . ياشيخ المسلمين والاسلام

الطالب الثانى : ما هذا ياشرف الدين ؟

عبد اللطيف : ألا تسمعون ؟ طالبوا الصـــدقات .

(تخفت الأصوات)

الطالب الثالث : هون عليك ياشرف الدين ، ظننت فى الأمر ما يخيف

عبد اللطيف : وأى خوف؟ أن ما أنفقته أمس بأمر والدى لم يف بحاجة من وفدوا على منزلنا، وها هم أولاء قد عادوا يطلبون ما أملوا . . .

(ينظر الثالث الأول ويصمت)

الطالب الأول : فيما ذا الصمت ؟

الطالب الثالث : لدى مال أوقدنى الشيخ به لأعطيه لبعض المهاجرين من أطراف الشام إلى دمشق ولم أهتد إليهم

عبد اللطيف : إذن فلنسرع إلى هؤلاء ونثره عليهم ونسد حاجتهم حتى يأتى والدى

الطالب الثانى : هو الرأى

الطالب الثالث : أعتقد أن أستاذنا العز قد يكون اليوم فى حاجة إلى ما ينفقه على نفسه وعلى دعوته فى سبيل الدين والوطن .

عبد اللطيف : إن والدى لم يعودنا إلا الإنفاق ، وله الساعة التى هو فيها . هيا . . هيا

الطالب الأول : لا بأس . هيا بنا . . (يسرعون جميعا)

(يدخل الشيخ ومعه ابن الحاجب — من باب آخر)

العز : اجلس حتى ندبر الأمر (يلتفت فيجد حافظة موضوعة على كرسى)

(يتنهد ويرسل نظرة فيها ألم)

ابن الحاجب : ما هذا ياعز الدين ؟ زفرة مكروبة ، وعهدى بك أن تبسم للأحداث

عز الدين : انظر يابن الحاجب ، إنها حافظة طالب أظنه كغيره ، وفد إلى منزلى لتلقى الدرس بعد أن عطل مكانى من الجامع الكبير بدمشق وعطلت الدراسة فى الغزالية

ابن الحاجب : إنها سحابة أحداث عن قريب تقشع ويعود الطلاب إلى درسك وتعود إلى مجلسك منهم .

عز الدين : هيهات . . إلا اذا أجلينا عن دمشق وعن الشام جميعه مفاسد تنخر فى حياتنا بما جره علينا طمع الفرنجة وتهالك ضعاف النفوس على مغرياتهم .

ابن الحاجب : لعلك باضع نفسك على تفرق آراء العلماء والأمراء والكبراء .

عز الدين : وتلك التى تستك منها المسامع . يابن الحاجب ناشدتك الله أن تعود إليهم - فرادى، وتذكرهم بالله واليوم الآخر حق الوطن ، لقد جف ريقى ولم أدع من شديد القول أولينه شيئا إلا سقته إلى أسماعهم عساهم يقفون بجانبي ويجابهون صاحب دمشق بعاقبه التصريح للفرنجة - وهم أعداء المسلمين . فى شراء الأسلحة وسلخ الليل والنهار فى دمشق وحاناتها . إن تعاون صاحب دمشق مع الأعداء أغرى الضعاف وجوعى النفوس ببيع ذخائرهم . ولاغناء فى الأموال إذا بات أربابها عزلا من الأسلحة آه . يابن الحاجب . . (تختنق الكلمات من الضيق)

ابن الحاجب : خفف على نفسك .. قل إنى سامع

عز الدين : كثيرا ما بصرت الصالح إسماعيل وخطأته فى تهالكه على إرضاء الفرنجة وتقديم الزاد والأسلحة وكل مرفه لقاء ما يرجوه على أيديهم من عون مزعوم وكأنى أضرب فى حديد بارد

ابن الحاجب : ياعز الدين أخشى ان تكون حدة لسانك هى التى شقت على صاحب دمشق فاخذته العزة بالاثم:

عز الدين : يا أخى أنت تعرف أنى لا أخشى فى الله لومة لائم وأننى أضيق بأن يقف الصالح إسماعيل ويدعو للفرنجة ويمشى الناس فى شوارع دمشق فلا يلقاهم إلا معربد من جنود الفرنجة .

ابن الحاجب : أظن الصالح إسماعيل فى نفسه شيء من...(يتمهل)

عز الدين : فى نفسه أشياء . إنه يضيق بتحاوني مع المصريين ويحبى نجم الدين . ويحقد على حب الطلاب وإقبال الوافدين من مصر ومن العراق وأطراف الشام .

ابن الحاجب : وأيضا يحذر عاقبة إقبال النابهين من المماليك وتلقيهم عليك وإنه ليحسب ألف حساب لمن يباعون إلى تجار القاهرة لقد أصبح لبعضهم شان أى شان

عز الدين : ما أردت إلا أن أعز الاسلام بكل مخلص

للمسلمين فاتخذت العلم بابا للعمل ، وإنى لأضيق بالجدل والتعلق وراء تشقيق الكلام والتهافت على الآراء التى لا تنتهى إلى غاية عملية

ابن الحاجب : حقا ياعز الدين . شقينا بجدل الحنابلة . وضقنا بمهاترة الحشوية وأضعنا الوقت فيما لا طائل تحته . وتكاد جيوش الفرنجة تتخطفنا . وإن حصوننا لتتهاوى كل يوم

عز الدين : علينا أن نعمل وأن نجند قوانا . والله غالب على أمره . ومن اتخذ سبيل العمل على النصر فلا بد أن ينتصر

ابن الحاجب : تعجبنى منك الثقة فى النجاح والأمل فى المستقبل . ولن يهزم الشرق ما دام فيه مجاهد مثلك

عز الدين : لن يهزم الإسلام فالله ضامن أن يحميه

ابن الحاجب : „ واستعينوا بالصبر والصلاة “

(يشير بيده اليمنى)

هناك مكان التهجد . وحتى تفرغ من صلاتك

أكون قد سطرت رسالة إلى . .

(يسمع وقع أقدام ، فيلتفت الشيخان الى مصدر الخطوات)

ابن الحاجب : من يأتى وقد أجننا الليل ؟

العـــز : لعل بعض الطلاب . . إلى صلاتك

(يأخذ ابن الحاجب فى الانصراف ويتقدم العز لاستطلاع الأمر فيبدو خمسة فى زى المماليك يتقدمهم مملوك وسيم فى زى تاجر)

القادمـــون : السلام على شيخنا عز الدين

العـــز : وعليكم السلام . (يتبين وجه الفتى الأول) مرحبا . . نزلتم أهلا ، وحللتم سهلا . يامرحبا . . قطز . . ؟

قطز : نعم أنا قطز . . وهؤلاء هم . . (يصمت ويلتفت اليهم) المشترون بثمن بخس دراهم معدودة ، قد من الله علينا . . وسنكون غدا فى طريقنا إلى مصر بعد أن تزودنا بنصائحك

(يسمع من بعيد صوت يعلو شيئا فشيئا يرتل آيات من سورة يوسف . . يغرق

الحاضرون فى التأمل والتأثر ثم يبعد الصوت تدريجيا)
« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال
ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » . . إلى قوله:
«وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون» .
(يبعد الصوت تدريجيا حتى يتمحى) .

العـــز : صدق الله العظيم

قطـــز : أستاذى . . . إنى لأجد أملا أحس ريحه

العـــز : ليس على الله بمستنكر يا محمود

مملوك : محمود . . . ؟

قطـــز : كان اسمى محمودا من نسل علاء الدين خوارزم
شاه (فى حسرة) ألا تعلم أن جلال الدين قتل
مشردا فى قرية من قرى الأكراد بعد جهاد شاق
فى دفع التتار هناك . . . (تأخذه عبرة) . . .
لا تذكرنى بأيام أسرى صـــغيرا قبل أن أباع
وتتقلب بى الأحداث . وكنت هنا فى دمشق
أختلس ساعات أستمع فيها إلى أستاذى . . .
ليتها دامت

العـــز : أخشى على مهمتك فى مصر يا . . . محمود (يبتسم)

يا قطز . . هيأتك لمهمة تقوم بها هناك . إن الاسلام
فى حاجة إلى جهود جديدة ترد عنه كيد الطغاة

مملوك : (يلتفت إلى الآخرين ويهمس) أهذا شأننا ؟

العز : (فى حدة) نعم أنتم المماليك وبعضكم من أرومة كريمة ، انتزع ملكهم على أيدى التتار واجتاحوا بلادكم وجيء بكم فى طفولتكم ، وقضى عليكم شره الناس أن تباعوا فى أسواق دمشق وبغداد والقاهرة

قطز : (تدور عينه من الألم وتفيض منها دمعات) نعم رب ضارة نافعة

مملوك آخر : دع الشيخ ، إنى لأجد لكلامه حلاوة وإن لم يدفعنا إليه لطلاوة .

العز : وإن صدق حدسى فان القصور ستجعل منكم أيادى تطول وتمتد وفى يمينها إعزاز الاسلام ، إن أردتم الانتصار لمجدكم الزائل ودينكم الخالد « ولينصرن الله من ينصره »

قطز : وما النصر إلا من عند الله

العز : ياقطز . أظن رحلتك من مصر إلى دمشق قد شقت عليك وعلى زملائك

أحد المماليك : شقت عليه فحسب ، أما نحن .

قطز : إنهم من دمشق . . أقصد .

المملوك : معاذ الله أن نكون من بلد يرعى الأجنبي وينسى حق الوطن، ويجعل من طعامه وسلاحه بل فراشه مهادا مذللا

قطز : كفى كفى فانا لا نريد أن تنكأ جراحات فى قلب أستاذنا لما تندمل بعد

عز الدين : رعاك الله يا قطز، نريد . . . (يهز رأسه) ولكن الواقع ساخر من كل ذى عينين

قطز : أستاذى . . . لقد رغبت فى لقائك فتخفيت فى زى التجار، ودرت فى أسواق دمشق، وتخللت هؤلاء الأخوة بعد ما توسمت فيهم النجابة

مملوك : والله لقد أنقذتنا من ظلم محدق وخطر ملم

العز : لقد أحسن الله بكم

قطز : وسيشد الله بهم عضدى . . سيدى، أريد أن أسر إليك بعض ما احمل إليك من شئون مصر

العز : حبا وكرامة بعد أن يسمح زملاؤك

المماليك : ذلك ما نبغى

اللص : بنا يا قطز إلى حجرة الأمالى (يخرجان وهما يتهامسان، على حين يعود ابن الحاجب من تهجده . يرتاع المماليك)

ابن الحاجب : السلام عليكم

المماليك : (فى دهش) وعليك السلام

ابن الحاجب : لا تثريب عليكم .. ما شأنكم ؟

أحد المماليك : جئنا لنودع سلطان العلماء

ابن الحاجب : وفيم التوديع ؟ وعن قريب يعود الشيخ إلى درسه فى الغزالية وإلى حلقة المسجد الجامع

أحد المماليك : هيهات

ابن الحاجب : (فى ارتياع) وما ذلك على الله بعزيز .

مملوك : إن رحلتنا غدا

ابن الحاجب : ... رحلتكم ... ؟

مملوك : نعم .. إننا مماليك فى طريقنا إلى القاهرة

ابن الحاجب : فهمت ، وكبيركم هو التاجر . اشتراكم بثمن بخس دراهم معدودة ، وغدا .. غدا هناك فى القاهرة

مملوك : غـــدا ؟

آخر : غدا يكرم مثوانا ، ألم أقل لك إن مهمتنا شاقة وإن

يأسك وبكاءك لا جدوى منهما أيها الشيخ ، إنا لنرجو أن يعز بنا الاسلام ، وأن نكون سهاما ندافع عن كنانة الله .

ابن الحاجب : يا حسنها على كبدى . . يا ولدى

(يعود العز ووراءه قطز فيسمع الكلمة الأخيرة)

العز : كلهم أولادك . . . حقا . . . اطمئن يا قطز وأنت يا بن الحاجب سل الله أن يوفقهم فى مهمتهم

(يلتفت إلى قطز)

إنه أبو عمرو بن الحاجب شيخ شيوخ المالكية وأرجو الله أن يقيل به عثرة بعض العلماء . . علماء السوء . .

قطز : لعل الله يعز مصر به كما سيعزها بك

العز : ياقطز علمتك أن تستعين على تدبير أمورك بالكتمان

ابن الحاجب : إنها فرحة الشباب المؤمل

العز : احذروا مفاجآت الطريق وجواسيس صاحب دمشق وطوارق جنود الفرنجة عند عودتكم

ابن الحاجب : واحذروا أن يلهيكم التكاثر بالجاه والأموال إذا استقر بكم المقام فى مصر

قطز : عن قريب سيكون إصدارنا وإيرادنا عن رأى أستاذنا العز

ابن الحاجب : أعد على سمعى يا ولدى

العز : لن يكون يا بن الحاجب حتى . . (يصمت)

ابن الحاجب : حتى تفرغ ما فى جعبتك من السهام

العز : إن سلاح العالم علمه ولسانه . . كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه

قطز : صدقت يا أستاذى .

ابن الحاجب : لقد أبليت يا عز الدين .

العز : ولكنى لم أبلغ الغاية.

ابن الحاجب : على المرء أن يسعى .

العز : وكما لا يجوز للملوك إغماد سيوفهم عن الملحدين والمشركين لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائغين والمبتدعين

قطز : ومن ناضل عن الله وأظهر دينه ، كان جديرا أن يحرسه الله بعينه التى لا تنام

ابن الحاجب : ولو شاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض

العز : ولذلك أعلن على الملأ وبلغ عنى طلابى فى القاهرة حتى ألقاهم ، إن المخاطرة بالنفوس مشروعة فى إعزاز الدين ، وكذلك المخـــاطرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

مملوك : ومن خشى على نفسه الهلكة

: (لا يجيب أولا) سقط عنه الوجوب وبقى الاستحباب (يهم الشيخ بالهوض) الأمر كما قال الرسول ، احفظ الله يحفظك ، (يتوجه إلى السماء ويتوجه الجميع معه فى ضراعة) اللهم فانصر الحق وأبرم لهذه الأمة أمرا رشدا إنك نعم المولى ونعم النصير

(يدخل شرف الدين مسرعا)

شرف الدين : أبى .. أين أبى ..

العز : ما أعجلك يا شرف الدين ؟

شرف الدين : كنت أتنسم هواء الليل جوار سور الحديقة بالقرب من نافورة المياه (يلتفت وراءه) وإذا ثلة من الجنود يتسلل أفرادها ولم أتبين إلا همس بعضهم إننا نبحث عبثا عن رجال مصر أيكونون هنا فى منزل هادىء ساكن يخيم عليه الصمت ؟

العز : (بيدى اهتماما) والجميع يأخذهم التفكير ثم ماذا يا شرف الدين ؟

شرف الدين : تمرضت لبعضهم فسألنى عن ضيوف وفدوا هنا

ابن الحاجب : وماذا قلت لهم ؟

شرف الدين : أجبت بأننى وزعت عليهم بعض الصـــدقات ثم انصرفوا

العز : أى صدقات يا بنى ؟

شرف الدين : أعطيات الفقراء والمساكين

ابن الحاجب : لقد صدق ، وضلل بهم

شرف الدين : انصرف بعضهم وشرذمة منهم لم تنتظر حتى تعمى عنى

العز : إذن لا لحق بهم حتى لا يخزونى فى ضيفى

قطز : ضيفك ؟ لاتخف سنبادرهم بسيوفنا ونقد أضلاعهم

مملوك : جردوا سيوفكم .. هيا وراء الشيخ

ابن الحاجب : لا داعى .. مكانكم حتى نستنجد بكم ... مكانكم

(يخرج الشيخ ووراءه ابن الحاجب)

شرف الدين: (يتقدم إلى مملوك) ألا تعطينى سيفا أنافح به دونكم

قطـــز : ومن يشابه أبه فما ظلم

(يدخل بعض الجنود من الجانب الآخر . . . .

شرف الدين : جنود منهم . . . . .

قطـــــز : (يستعد) لا تخف . . . الحق بوالدك وحذر أن يلتحم بأحد فى الخارج

شرف الدين : لا . . . بل أظل معكم وأبى له الله . .

(يتقدم الجنود)

كبير الشرطة : (فى عنجهية) أنتم جواسيس مصر وعيون أطماعه

قطـــــز : خسئتم . . . نحن رواد الخير للشرق وعرى اتحاد ورد الشر عن بردى والفرات

شرطى آخر : أغمدوا سيوفكم

قطـــــز : بعد أن نقد أعناقكم

كبير الشرطة : إنك تهذى . . أين رب البيت . . . أين الشيخ ؟

قطـــــز : ولم تسأل عنه وأنت لم ترع حرمة خطيب دمشق ؟

شرف الدين : هؤلاء هم ضيوف أبى . . . الا ترعى الله فيهم . ؟

(يتقدم قطز إلى كبير الشرطة ويخرج له بدرة)

(ويرفعها فى الهواء فيلمح انجذاب الشرطى اليها)

(فيدسها إليه . . . يلتفت الباقون فينثر لكل)

(واحد منهم بدرة يتشاغل الجنود باخفائها . . .)

كبير الشرطة : (لشرف الدين) أنت أيها الغلام ابن الشيخ عز الدين ؟

شرف الدين : نعم

كبير الشرطة : لقد صدقتنا . . إن من نظائهم جواسيس لم يكونوا إلا فقراء قد انصرفوا بعد اخذ الأعطيات والهبات . . وما أظن صاحب دمشق يطلب هؤلاء. إنهم تجار وطلاب .

شرطى آخر : ما لنا ولعابرى سوق التجارة ؟

شرطى ثانى : أو طلاب علم

شرطى ثالث : أو مرتادى بركة الشيخ . . . بنا بنا

(يخرجون)

(يدخل الشيخ وورائه ابن الحاجب ويلمح الجنود خارجين فى صف وقد وقف المماليك فى بشر يضحكون)

العز . ما هذا ؟

قطز : كنا نريد إهراق دمهم ، ولكنى عدلت لأنى أعرف كيف أردهم

(يحرك يده ببعض البدر فيفهم الشيخ ويضحك)

ابن الحاجب : تهيأ يا قطز للرحيل

العز : واسلك مسارب تنجيك ومن معك

قطز : ادع لنا بالنجاة وإلى اللقاء في القاهرة

العز : إن الله معكم.. بلغوا عني، واحفظوا عهدي واعملوا على تطهير بلاد المسلمين من الصليبيين وجموع التتار وإحياء عهد صلاح الدين .. ذكرهم بأيامه .

(يخرجون ويعود الشيخان إلى مكان يجلسان فيه يأخذهما صمت وتفكير)

ابن الحاجب : يا عز الدين فيم تفكر الآن ؟

العز : (ينتبه من غمرة تفكيره) إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . أهؤلاء جنود يرجى منهم الحفاظ والأمن على دمشق ؟

ابن الحاجب : تلك عقبى اختلاط العرب بخالات الأجانب ... أمشاج تشيع الفساد وتنفث الضعف

العز : إن دمشق الآن مهاد لعبث الفرنجة

ابن الحاجب : دمشق وأطرافها والحصون والقلاع وبلاد الساحل ... آه

العز : لابد من تفكير وعمل حاسم

ابن الحاجب : ينقصنا القوة وإعداد وسائلها

العز : إنى فى سبيل إعدادها السريع

ابن الحاجب : أخشى ان يكون اعتمادك على العامة وثورة نفوسها

العز : آمنت بأن ذلك لا يكفى

ابن الحاجب : إنك لم تدع مثيرة للحماس إلا أشعلتها على منبر الجامع الأموى ، ولا محببة للجهاد من كتاب الله وسنة رسوله إلا أوسعتها شرحا وإفاضة فى دروسك بالغزالية ، ولكن

العز : ولكن ماذا ؟

ابن الحاجب : المثبطات والأطماع والأهواء والمغريات التى يرسلها صاحب دمشق

العز : أعرف كل هذا وارغب اليك بأن تفضى الى بما عساك كتمته عنى رفقا بى يوم أن حضرت مجلس استفتاء العلماء

ابن الحاجب : قلت لك خيبوا ظنى

العز : خيبوا ظنك وأسلموا الى أنفسهم . هذه رسائل بخطهم يعترفون فيها بصدق موقفى

(يهم الشيخ ويتناول وثيقة فيها توقيعاتهم)

اقرأ .. إنهم فى غفلة - .. رجعوا وانحرفوا لعرض الدنيا الزائل

ابن الحاجب : اذكر يا عز الدين أنى مررت على القضاة والعلماء والأعيان ، وقلت لهم إن الله يقول : «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون» وشددت النكير عليهم .. والعجيب ...

العز : العجيب أننا على الحق وغيرنا على الباطل .

ابن الحاجب : بل العجيب سكوتهم جميعا حين ضمهم مجلس السلطان يوم الاستفتاء

العـــز : ألم يقل واحد منهم كلمة حق ؟؟ ألم يفهموه أن حراما بيع الأسلحة للفرنجة على حين أنهم سيقاتلون بها جنود المسلمين ؟

ابن الحاجب : الذى أضحكنى ياعز الدين أن الذى تكلم منهم قال : السلطان أولى بالعفو والتغاضى والصفح عنك .

العـــز : كبرت كلمة ... الصفح لا يكون إلا عن جرم وأنا لم أجرم إلا أن أنادى بأن الإسلام والشرق فى خطر فادفعوا عنهما العوادى بالاتحـــاد

وإعداد القوة ومقاطعة المشركين والواغلين فى بلادكم من الطامعين .

ابن الحاجب : الحق أن فى بعض العلماء تعصبا عليك ، وفى نفس السلطان حرجا من تعرضك له فى خطبة المسجد الجامع ، وفى ألفاظك القول له ما أعانهم عليك .

العـــز : هذا لا يضيرنى

ابن الحاجب : لقد ظفروا بثلاثة أشياء أراها معوقة لمهمتنا .

العـــز : الأمر هين .

ابن الحاجب : لا تفتى ولا تجتمع بأحد ولا تبرح بيتك ... أهذا هين ؟

العـــز : تلك من نعم الله الجزيلة الموجبة للشكر .

ابن الحاجب : لكن الناس فى حاجة إلى فتياك .

العـــز : كنت والله متبرما بها ، ولولا اعتقادى أن الله أوجبها لتعينها فى هذا الزمان لما قمت بها .

ابن الحاجب : والآن ؟

العـــز : والآن قد عذرنى الحق وسقط عنى الوجوب وخلصت وبرئت ذمتى .

ابن الحاجب : ولزوم بيتك وعدم اجتماعك بالناس .

عز الدين : والله ما منعنى أحد عن الناس ، وما لزمت بيتى ، ألا ترى أنى فى بستان يأوى إليه جميع الناس ، ومع هذا فالسعيد من لزم بيته وتفرغ لعبادة ربه .

(تأخذه موجة تفكير ثم يتمتم بكلمات . . . يدوى صوت من وراء الحجرات فى جمال وتطريب)

أحقا عباد الله أن لست رائحا
ولا غاديا إلا على رقيب
ولا سائرا وحدى ولا فى جماعة
من الناس إلا قيل أنت مريب

ابن الحاجب : أفق ياعز الدين أفق .

عز الدين : (يتمثل) إذا صح منك الود فالكل هين . . .
وكل الذى فوق التراب تراب

(الصوت يبتعد شيئا فشيئا)

ابن الحاجب : ياعز الدين تريد أن تذهب نفسك حسرات وأنات

عز الدين : ربنا الرحمان المستعان إن نصرة الدين أمانة فى عنق

العلماء وتبصرة المنحرفين عن حقوق الوطن أمانة
في عنق العلماء

ابن الحاجب : وهل قصرنا ؟

العـــــــز : نريد أن نعمل ، لأنه لا خير في العلم بدون عمل

ابن الحاجب : أذهب إلى صاحب دمشق أحض النصح له وليطالته

العـــــــز : أيرجع بعد أن تورط وترامى في أحضان الفرنجة
الخير في مقاطعته والاثارة على عمله حتى ننقذ
دمشق بل الشام جميعه من الخطر المحدق

ابن الحاجب : دعني أرم آخر سهم . . . ثق بي يا عز الدين

العـــــــز : أن الذي يفرط في حق وطنه شفاء لحقد في نفسه
حقيق بألا يقبل النصح وألا يجازى بغير المقاطعة

ابن الحاجب : بالله إلا خففت على نفسك وتركت لي . .

العـــــــز : (مسرعا) : انت تنسى ياصديقي لقد نصحت صاحب
دمشق في مجلس ضمني والعلماء .

ابن الحاجب : جابهته في عنف من القول وإغلاظ في النصح
وحدة في التعبير يا عز الدين ... كان لك في المعاريض
مندوحة

العـــــز : اذكر يا أخى أن حديثى كان نصحا لله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وطوعا لكتابه بالعمل بواجبه ولرسوله باتباع سنته والأئمة بارشادهم إلى أحكامه والوقوف عند حدوده ، ولعامة المسلمين بدلالتهم على ما يقربهم إليه ويزلفهم لديه

ابن الحاجب : أديت ما عليك

العـــــز : هذا جانب من الجهاد

ابن الحاجب : جاهدت حق الجهاد بالنصح والبيان

« يستأذن أحد الطلاب فى الدخول ويسلم »

العـــــز : مرحى ما وراءك؟

الطالـــب : جدل يشغل الدمشقيين . وعراك أثاره بعض رجال الحشوية فى خلافاتهم واجتماعاتهم التى يوهنون بها تعاليم الشريعة

بن الحاجب : صدقنا والله

العـــــز : (فى تفكير) : . . . لا حول ولا قوة الا بالله

الطـــالب : (يتريث) : . . . أستاذى

العـــــز : آزفة ليس لها من دون الله كاشفة

الطالب : بلغنى أن الشرط يبحثون عن مثيرى الفتن والقلاقل من الحشوية والمجسدين

العـــــــز : (فى تهكم) : إنهم يحافظون على أمنهم وحياتهم فحسب أين كانوا قبل أن يستشرى شرهم ويتألب جمعهم وتزيغ به قلوب الناس .

الطالب : تعنى الحشوية من يقولون بالتجسيم والتشبيه ، أم أهل البدع ؟

العـــــــز : كل ما عدا أهل التوحيد والتنزيه أعدهم شركاء فى الشر الذى جلب على بلادنا

ابن الحاجب : إنه لخبث فى الضمائر وسوء اعتقاد فى السرائر

العـــــــز : (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول)

الطالب : لم يبق أحد إلا ضج من هذه الجماعة المطاردة التى لا تمل الإفساد وبث الفتن فى النفوس والاتجاهات والعقائد .

العـــــــز : سوف تضرب عليهم الذلة جزاء وفاقا (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض)

الطالب : إنهم نهازون للفرص . لا تلوح أية فتنة إلا طاروا

إليها ولا غميزة إلا أكبوا عليها ... إنهم يلتحفون بنفاق يبرأ منه الدين .

العـــــــز : كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله .

ابن الحاجب : أعاننا الله على مقاومة المفسدين

العـــــــز : (فى حدة) : تعالى الله .. يابنى (للطالب) غدا تجمع جموع زملائك وإن لنا فى المسجد الجامع لشأنا (يخرج الطالب)

ابن الحاجب : بالله إلا أخبرتنى ليطمئن قلبى

العـــــــز : سأعلن رأيى فى الحشوية قاطعا

ابن الحاجب : لا بأس . . إنهم كافرون بالله

العـــــــز : رأيى رأى السلف الذين حاربوا القدرية والجهمية والجبرية (يتوجه إلى السماء) فورب السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إن الحشوية المشبهة كافرة لأنهم يشبهون الله بخلقه ويحسبون أنهم على شىء ... يابن الحاجب السنا ورثة الأنبياء ؟

ابن الحاجب : نعم .. ونحفظ من كتاب الله (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)

العـــــز : من أنكر المنكرات التجسيم والتشبيه ، ومن أفضل المعروف التوحيد والتنزيه

ابن الحاجب : أخشى ياعز الدين

العـــــز : إنا لا نخشى إلا الله

(يستأذن رسول صاحب دمشق ووراءه ، بعض الجنود يمشون عن قرب)

رسول صاحب دمشق : السلام عليكم

العـــــز : وعلى المؤمنين السلام

الرســـول : (فى انحناء) : رسول السلطان

العـــــز : (يتمهل . . ويتلو) :

«وإن تولوا فاعلموا : أن الله مـــولاكم نعم المولى ونعم النصير »

(يتراجع الرسول ويتحفز ابن الحاجب)

الرســـول : (فى رعدة) : يا سلطان العلماء ما على الرسول إلا البلاغ

العـــــز : قل وأوجز

الرســـول : إن صاحب دمشق

العـــــــز : أعاد الوعيد ، أليس كذلك ؟
سوف لا تحدثنى بجديد يا هذا

ابن الحاجب : اود أن تترفق برسول صاحب دمشق

العـــــــز : يا رسول أبى حبيش . . هات ما عندك . . هات ما أفرغه عليك

الرســـول : أمرنى أن أبلغك أن الفتنة نائمة

العـــــــز : لعن الله مثيرها ومن يحب إثارتها

الرســـول : (فى دهشة) : يخيل لى أنك تدرى ما فى الرسالة

العـــــــز : أحملت رسالة ؟

الرســـول : خطها السلطان بيمينه

العـــــــز : اذن هاتها

(ويشير فى استخفاف فيتقدم الرسول بالرسالة)

الرســـول : ها هى ذى . . . (يفضها عز الدين وينظر فيها) ها ها . . . إن صاحب دمشق يعيد ما بدأ به إخوان له من قبل (يضحك فى أسف) هيه (يعيد ما قرأ فى استخفاف) [إن كنت تدعى الاجتهاد فعليك أن تثبت ليكون الجواب على قدر الدعوى ولتكون صاحب مذهب خامس .]

العـــــــز : (يلقى بالخطاب فى استخفاف): الجواب ما أكتب
لا ما تسمع أيها الرسول ، مع إلى حجرة الأمالى
حتى أملى عليك رد ما يطلب (يمضيان) .. كم مج
صوتى من قولى .. إن أصـــول الدين ليس فيها
مذاهب .. الأصل واحد والخلاف فى الفروع

جنـــدى : (لزملائه) : أكاد أجن .. خطيب الجامع الأموى
وشيخ الشافعية يفتى بتحريم بيع السلاح

جندى آخر : وتوافقه علماء الحنفية والمالكية وفضلاء الحنابلة

« ثالث : أهناك من يخالف فى تحريم ذلك ؟

الجندى الأول : جماعة يحقدون على الشيخ العز ويسكتون عن إبداء
الرأى طلبا لرضا سلطان دمشق ويرى السلطان
أن مجاهرته بالرأى إثارة للفتنة .. أكاد أجن

(تسمع خطوات جنود فى اندفاع)

(يصطف الجنود ويدخل الصالح إسماعيل .
ابن الحاجب قد أخـــذ جنديا واتجه به
ناحية ..)

الصالح إسماعيل: اين ابن عبد السلام ؟ (تأخذ الجند دهشة وخوف)
أين رسولنا إليه (يلتفت الصالح إسماعيل فيرى

رسالته منشورة على طرف أريكة)

الصالح اسماعيل : هذه رسالتنا ؟ . إنها ملقاة . . هيه أيها الجنود أين رســـولى ؟

الجنـــدى : إنه مع الشيخ فى حجرة الأمالى

الصالح اسماعيل : مؤامرة . . رجالى واحد منهم مع رأس الثائرين وباعث حركات المتمردين، وآخر مع ابن الحاجب

(يلتفت إلى ابن الحاجب) مؤامرة أخـــرى . . أيها الحراس اقتحموا عليهما الباب .

(يخرج العز على صوت الجلبة فيجابه الجنود والصالح إسماعيل)

العـــــز : اقتحمت بيتى يا أبا الحبيش

الصالح اسماعيل : أنا الصالح إسماعيل . . صاحب دمشق ، ما يوجه إلى هذا القول

العـــــز : كن كما تشاء . . لكنك الآن تخالف قول الله . .

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)

الصالح إسماعيل : أبذلك تخاطبنى وأنا الذى وليتك خطابة الجامع الأموى وعفوت عما جرته صرامة لسانك وتحديك

لأعوانى ومناوأة ما أبرمه من عهود

العـــــــز : هون عليك .. علينا ألا نكتم الحق وألا نحل ما حرم الله

الصالح إسماعيل: أنت تعارض فى تعاونى مع الفرنجة

العـــــــز : لا ينبغى أن نتخذ من أعدائنا أعوانا (يأيها الذين آمنوا لا تتخـــذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا، ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر)

الصالح إسماعيل: أريد منك أن تعود غدا وتعلن للعامة غـــير ما صدعت به

العـــــــز : كبرت كلمة أقولها فى غير ما يأمر به الشرع

الصالح اسماعيل كل : وماذا تريد أن تقول ؟

العـــــــز : سأعيد ما قلته (انما يحرم عليكم مبايعة الفرنجة لأنهم يشترون الأسلحة ليقاتلوا بها المسلمين)

الصالح اسماعيل : (مقاطعا) : قضى الأمر .. توقعت انك لن تستجيب للرسول فأتيت بنفسى .. ياعز الدين أنت معزول ومبعد عن الخطابة فى الجامع

العـــــــز : سأجعل من كل مكان يسمع فيه الأذان منبرا أدعو

فيه إلى مناوأة أعداء المسلمين

الصالح اسماعيل: لن تمكن من هذا (يلتفت) .. يا كبير الشرطة

كبير الشرطة : نعم يا مولاى

الصالح اسماعيل : خذه إلى السجن .. سجن القلعة . . قلعة دمشق . . وإياك أن يتصل به أحد

ابن الحاجب : ترفق بالعلم والعلماء ، واحذر ثورة النفوس .. لقد سجنته من قبل

الصالح اسماعيل : (لكبير الشرطة) : خذه معه أيضا

العـــــــز : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .. إنا من جنود الله ، وكل جندى لا يخاطر بنفسه لايعد جنديا . .

(رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه)

« ستار »

الفصل الثانى

(نشز محاط بتل يطل على مدينة الكرك ..)
مخيمات حول نخيلات غرست فى حمى « ربط »
وأمكنة اتخذها بعض المتصوفة « الدراويش »
خيمة قريبة ببابها درويشان . أصوات غير بعيدة
من وراء المرتفع)

الأصوات : يا رجال الليل جدوا رب صوت لا يرد
ما يقوم الليل إلا من له عزم وجد

..

قد مضى الليل وولى وحبيبي قد تخـــلى

(تبعد الأصوات تدريجيا)

أحد الدراويش : ما هذه الأصوات ؟

الدرويش الثانى : إنها تدعونا

« الأول : لى رغبة فلأصل من أجلها

« الثانى : ألا تعلم يا صديقى أنها بدعه

الدرويش الاول : تريد ان تخذلنى

« الثانى : أفتى شيخنا العز بأنها بدعة . وأنت تعلم أن كل بدعه ضلاله

« الأول : وكل ضلالة فى النار .. ولكن ..

« الثانى : أتعجب من ذلك ؟

« الأول : هل أفتى الشيخ حقا ؟

« الثانى : نعم ومنع صلاة النصف من شعبان ودعاءها المصنوع

(يسمع الصوت مرة أخرى ثم يتقدم جمع من الدراويش فى نشاط ينشدون)

الدراويش : يا رجال الليل جدوا

قد مضى الليل وولى (يكرر هذا)

(يتأثر الدرويشان وتأخذهما نشوة السماع، وينسل شاب مفتول العضلات هو « قطز يصحبه فتيان أشداء فى ملابس الدراويش يمشون فى المؤخرة)

قطـــــــز : (لأعوانه هامسا) : مع الدراويش ولا يشعرن بكم أحد حتى نلقى الشيخ ، وإياكم أن يعلم أحد بأننا من مصر

الدراويش : (يرددون) : يارجال الليل جدوا ....

الدرويش الأول: إن لم تكذبني عيني في نظرتها العابرة فهذا الفتى الوسيم أعرفه ، إنه قطز (الدرويش لنفسه) الخير في أن أدعه وشأنه .. وما يدريني ربما شبه لي فما رأيته من يوم أن كنا نتلاقى في مجلس الشيخ بدمشق .. أيام خلت

(درويش ثالث يقترب من الدرويشين)

الدرويش الثالث : ماذا تقول يارجل .. ؟ اتحدث نفسك ؟ .

« الأول: لا ... لا ... أخذني تطريب الدراويش .

« الثالث : وأحداث النهار ألا تصدعك ؟ .

« الأول : وحملت زفرات الضحى فأطقتها
وما لي بزفرات العشي يدان

« الثالث : إنك محب ..

« الأول : أحبها وتحبني .

(أغاني الدراويش تتردد مع موسيقى غامضة رهيبة لا يعرف مصدرها ، يتقدم درويش ومعه رجل يتمايل وفي يده زجاجة يخيل للرائي أنها مملوءة بالخمر المعتقة ، يشده بقية الدراويش)

الرجل المخمور : متمنای سکرة قبل موتی

وصیاح الغلمان یا سکران

(یتراقص ویقول فی لهجة السکران)

وصیاح الغلمان یاسکران . . یاسکران . . یا سکران . .

(یلتف حولهما الدراویش . هذا یصیح . والثانی یتألم ویهم أحدهم بضرب الرجل) .

أحد الدراویش : (یمسك بخناق المخمور) یارجل ثب إلی رشدك .

(المخمور) : أرق هذا .

(المخمور) : ونشربها فتترکنا ملوکا واسدا ما ینهنهها اللقاء .

الدرویش : یارجل . . أفق

شربنا علی ذکر الحبیب مدامة

سکرنا بها من قبل أن تخلق الکرم .

درویش آخر : یارجل . أهذا یلیق ؟ (ویلتفت للدرویش المزامل) وأنت معه ؟ ؟

(المخمور) : (فی جد وحدة) أو یلیق بکم أنتم أن تقبعوا هنا تتواجدون ولا تمتد همتکم إلی دفع المنکر . . هناك . . حیث تعاقر الخمر وترتکب الفواحش ما ظهر منها وما بطن (یهت الدراویش) .

درويش : إذن أنت لست سكران .

لرجـــل : أجل . . وما كان لمثلى أن يرتكب هذا الجرم .
إن هذا لهو البلاء المبين (فى غضب) أنت يقظان
فلماذا التصنع (يسكت الرجل المتظاهر بالسكر)

الدرويش : أريد أن نجرد دعاة يتشرون فى دمشق وعواصم
الشام يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
ويحثون على الجهاد .

درويش : صدقت وبررت .

درويش آخر : وناس دعوة الحق .

حد الدراويش : وندع العبادة وقيام الليل ونخلع خرقة الصوفية ؟

الرجـــــــل : (يتقدم إليه ويهزه بيده) : ما أحسن هذه الخرقة
لو بدلت بمجن، وما أجمل هذه القدم لو أثارت
غبار الحـــرب وما لذ التواجد والتمايل فى
تسديد الضربات وتحامى الطعنات . ما أحب
الجهاد فى سبيل الذود عن حمى الاسلام والمسلمين

صـــــــوت : يا رجال الليل جدوا رب صوت لا يرد
ما يلاقى الحرب إلا من له عزم وجـد
(يردد ما يلاقى الحرب إلا . . الخ)
(يبعد الصوت تدريجيا)

الدرويش : التصوف ثورة الضمير لما يصيب الناس من مهانات وما يلاقى عليهم من ظلم، أما سمعتم بانتهاك الحرمات فى دمشـــق واختلاف الكلمة بين ملوك المسلمين، تفرقوا شيعا وكل حزب بما لديه يكيد للآخر والعدو بالمرصاد

الدرويش الثانى : ما أرانى إلا متأثرا بهذا القول

متحمس من الدراويش: ألم يقل العز بن عبد السلام إن العلماء مسئولون عن تقويم الحكام وإرشادهم

آخـــر : وكيف ؟ . أبا السيف ؟

المتحمس (يرد فى حدة) إن لم يكن بحد الســـنان فبالحسنى وحد البيان (جندى يندفع)

الجنـدى : أين العز بن عبد السلام . . أين ينزل يارجل ؟

الدرويش : العز بن عبد السلام ؟

الجنـدى : نعم . . العز بن عبد السلام

الدرويش : ليته يكون هنا

الجنـدى : أتنكره ؟

الدرويش : إنه الشمس يا شرطى لا أستطيع أنا ولا أية قوة فى الأرض أن تخفى مكانه

الجنـدى : ألا تعلم أنه مطلوب من . . .

درويش آخر : مطلوب من ؟

الجنـــــــدى : من مولانا الصالح إسماعيل

(تلتف مجموعة من الدراويش)

الدرويـــش : آه . . مولاك أنت . . ضقتم بدعوته ومناهضته لأعداء الاسلام

الجنـــــــدى : (يلحق به آخر وآخر) : لا نضيع الوقت

الدرويـــش : ليته بيننا الآن ... ليت وهل ينفع شيئا ليت

الجـــندى : لا تثرثر . إننا نريد مكان « العز »

الدرويـــش : خل عنك ، إنكم لن تنالوا منه شيئا

الجـــــــنود : (لزميلهم) إنه درويش . هيا لنبحث عن طلبتنا خل هذا . . إنه يؤذى

الدرويـــش : أنا أهذى . (يضحك)

(الجندى يدفع الدرويش فى سخرية وينصرف ووراءه الجنود)

صـــــــوت : يارجال الليل جدوا يارجال الليل جدوا

(يخرج العز من خيمته)

الدرويـــش : (يقوم نافضا عنه ألم اللكزة) : شيخى العز . . إنهم يطلبونك

العـــــز : ان يصلوا إلينا . . هون عليك

(يندفع نحوه قطز من خلف نخيلات بعيدة)

قطـــــز : سيدى العز مرحبا بسلامتك (ويتنحى به جانبا) مصر فى شوق إلى لقائك . إن القاهرة فى زينتها . الصالح أيوب ومفتى القاهرة ونواب السلطنة وجند القلعة يستعدون للاحتفال بمقدمك

العـــــز : كل هذا ياقطز

قطـــــز : حمدا لله على نجاتك

العـــــز : الحمد لله على السراء والضراء . لا تخش فالله معنا

قطـــــز : وأين شيخنا ابن الحاجب ؟

العـــــز : إنه فى ضيافة الناصر داوود . . بقصر الإمارة

قطـــــز : هدى الله صاحب الكرك

العـــــز : إن ابن الحاجب أستاذه ولابن الحاجب دالة عليه

قطـــــز : أخشى يا سيدى من أحابيل الصالح إسماعيل وتغريره بصاحب الكرك

العـــــز : هيهات أن ينال منا شيئا . . لقد تركنا له دمشق

قطـــــز : لن نتركها

العـــــز : حياك الله . . نعم لن نتركها للطغام وحفنات جائعة تعيث فسادا فى أرض العرب ومدارج الإسلام

قطـــــــز : إن سلطان مصر لابد أن ينقذ دمشق ـ فلنرحل الآن

(درويش يتقدم ويسمع آخر كلمة)

درويـش : كيف ؟ إن الشيخ فى ضيافتنا

قطـــــــز : ليس هذا وقت الضيافة .. يجب أن نرحل إلى مصر سريعا

العـــــــز : كل آت قريب

قطـــــــز : أخشى يا سيدى .. وهم يجدون فى طلبك .. أن ..

العـــــــز : (مقاطعا) : كن على يقين من أنهم لن يردونى عن غايتى

قطـــــــز : والساعة .. ماذا ترى ؟

العـــــــز : الآن عد إلى مكمنك وخذ حذرك .. وأنتم أيها الدراويش إلى صلاتكم وخيامكم ودعونى ، فان الناصر وابن الحاجب قد يحضران الآن

قطـــــــز : طاعة لك سأترقب

العـــــــز : شكرا لك يا ولدى .. (ويلتفت فيرى أحـــد الدراويش قادما ، يتقدم وراءه آخر)

الدرويش : أحسب القادمين من جنود الصالح إسماعيل يريدون بسيدى الشر

العـــــــز : الله خير حافظ

درويش آخر : ألمح من هدوء السائرين أنهما من جماعة الناصر داوود.

العـــــز : إنه الناصر .. لاشك ، هيا ... كل إلى وجهته

(ينصرفان ويميل العز إلى جذع نخلة)

(ثم يقدم الناصر داوود ومعه ابن الحاجب)

الناصر داوود : السلام على شيخ الإسلام

العـــــز : وعليك السلام ... (تحايا)

(يجلس ابن الحاجب والعز والناصر حول جذع النخلة وتمضى الجنود غير بعيد)

الناصر : أى سر فى إيثارك هذا المنزل .

ابن الحاجب : لعله آثر الاستجمام بعيدا عن جو السلاطين

العـــــز : إن هذا المكان أشفى لنفسى التى ملت دمشق وصنائع المغيرين

الناصر : أرجو أن تشرف الكرك وتنزل فى قصرى ، إنى تلميذك وهذا أستاذى عمرو بن الحاجب ، وأنتما صديقان

العـــــز : أما يكفى ابن الحاجب ؟ إن الأمر أجل من أن نترك وقتا دون أن نفكر فى مستقبل الشام بل فى بلاد الإسلام أجمع

ابن الحاجب : إن الإسلام ربا يحميه ولن يترك الله أهل دينه أبدا

الناصر : تعالى الله

العزيز: وقل اعملوا فسيرى الله عملكم وكفاحكم . . ومن آثر الله على نفسه آثره الله ومن طلب رضى الله بما يسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، علينا أن نحفظ الله يحفظ أوطاننا ودينا .

ابن الحاجب : نصحنا ولم يبق إلا الخروج .

الناصر : أأخرجوكم ؟

ابن الحاجب : حملونا على أن نفر بديننا

الناصر : أعلم أنكم خرجتم بمحض إرادتكم .

العزيز: ليس هذا موضع الجدل .

الناصر : مارأيك لو عمل الصالح إسماعيل على إرضائك لارجاعك إلى دمشق .

العزيز: لن أرجع عن عزمى .

أحد جنود الناصر: (يتقدم من الناصر قليلا) : سيدى . . أرى شرذمة من جنود الصالح اسماعيل مقبلة .

الناصر : خذوا الأهبة أيها الجنود (يعدون السلاح)

المعـــــز : (يشهد الاضطراب على ابن الحاجب) : لا تخشى شيئا يابن الحاجب
(فى كل شىء اذا ضيعته عوض
وليس فى الله إن ضيعته عوض)
(فى هدوء الواثق) أنا عازم على المضى إلى مصر. فهل أنت مرافقى إلى بلد أراه موطنا خصيبا لدعوتنا والدفاع عن كيان الشرق أجمع .

ابن الحاجب : ألا تقيم وقتا هنا حتى تتعرف استعداد المصريين

المعـــــز : ثق بى . لقد أعددت العـــدة ، وأخذت الأهبة وليس فى مصر من يتقاعد عن نصرة الشرق والدفاع عن دين الله

الناصر : إن سيدى ابن الحاجب له على من الحقوق ما يقضى بأن أرد جميل بعضها ، وإنه ليؤثر أن يتم تأليف كتابه (الكافية) فى حياطتى وعنايتى .

المعـــــز : وكفى الله المؤمنين . .

ابن الحاجب : حبذا لو بقى معى شيخ الإسلام بعض الوقت حتى نستجم ونطمئن قبل دخول مصر

المعـــــز : الرأى الأخير هو أن أرحل إلى مصر

الناصر : أو ليس لنا رجاء عندك ؟

العـــــز : توكلت على الله وعزمت ولا راد لى عن هذا

ابن الحاجب : إذن أمضى معك

العـــــز : بعد أن تقضى وقتا هنا وتفرغ من كتابك ... لك أن تدركنى هناك .

جندى آخر : مولاى .. رسول من الصالح إسماعيل صاحب دمشق يريد لقاء شيخ الاسلام

الناصر : ومعه جنود

الجندى : نعم .. وقفوا غير بعيد

الناصر : (يلتفت إلى العز) أتأذن للرسول ؟

العـــــز : ليس لى رغبة فى لقائه ، ولكن لا مانع عندى

الناصر : وماذا لو وقفنا على ما يحمله

العـــــز : لا بأس

الناصر : ليحضر رسول الصالح إسماعيل

(الجندى يرجع القهقرى)

ابن الحاجب : إن صح ما روى لى كان الصالح إسماعيل على مقربة منا

الناصر : أعلم أنه ضربت خيمة قريبة عهد ، ولا يبعد أن يكون الصالح إسماعيل قد جاء متخفيا .

ابن الحاجب : عساه راجع نفسه فى موقفه من شيخ الاسلام

العـــــز : الأمر هين بالنسبة لايذائى وحبسى .. لكنه أضاع على الاسلام والمسلمين هيبتهم .. ومكن للأعداء فى بلادنا

الناصر : ستعلم من الرسول كل شىء

العـــــز : لاحاجة لى بعلم ما لا يجدى

(يتقدم الرسول)

الرســـول : السلام عليكم

الجميع : وعليك السلام

الرســـول : إن مولاى فى خيمة ضربت له ومعه الأمراء وبعض قواد الفرنجة وصاحب حمص .

العـــــز : (فى امتعاض) : قل إن معه من يمكن لهم من سيادته واستعباده

ابن الحاجب : تمهل حتى نسمع .. لا يكن فى صدرك حرج

الرســـول : سيدى .. شيخ الاسلام .. إنهم ما جاءوا إلا ليستعطفوك وليرجعوك إلى دمشق

الناصر : هذا ما توقعت .

العـــــز : لن أرجع فى ركاب الفرنجة .. لن نرجع إلى محنتكم بعد إذ نجانا الله منها .

الناصر : ثم ماوراء الرسول

الرسول : سيدى الصالح إسماعيل أرسل إليك ، ولعل الرسول فى قصرك الآن .

الناصر : ماذا من أجل الشيخ ؟

الرسول : إن مولاى لا يرى بأسا فى أن يعود الشيخ إلى ما كان عليه وأكثر

الناصر : يا شيخنا .. ابن الحاجب يقيم عندى .. وأنا لا أطمع فى إقامتك لأن الكرك لا يتسع لعلمك ومقامك ، وهذا الصالح إسماعيل يطلب عودتك. فهل ترى بأسا فى لقائه ؟

العـــــز : (يثور) : لا أرغب فى لقاء رجل ينزل عن حصون الإسلام لأعداء الإسلام .. حصن الشقيف .. وصيدا أعطيا للفرنجة .. لن تزول هذه الوصمة بل الوصمات حتى تزول الجبال .. وأشد من هذا بيع الأسلحة للفرنجة وهم يحاربون بها المسلمين ما هذا ؟ (يتوجه إلى الرسول فى ثورة)

ابن الحاجب : لا حول ولا قوة إلا بالله

العـــــز : إننا ننكر هذا وتأباه

الناصر : لعلها المصانعة

العزّ : على حساب الأوطان (يلتفت إلى الرسول) أيها الرجل قل لتلك الشرذمة : أنتم فى واد ونحن فى واد

الناصر : مهلا (يلتفت إلى الرسول) أتم كلامك

ابن الحاجب : هو ذلك

الرسول : (يظهر القوة فى كلامه) : أن سلطان دمشق على أهبة وهذا منديله، وكان الرأى أن يعتقل الشيخ ويعيده السلطان إلى دمشق . . ولكنه بعث بى لأتلطف ، وما على الشيخ إلا أن ينكسر شيئا لصاحب دمشق . . ويقبل يده لا غير

العزّ : (فى ثورة) : ماذا تقول ؟ . . أقبل يده . . والله يا مسكين . . ما أرضى أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده . . ارجع إليه وقل له . . إنى أرحب بالاعتقال وأرحب بأن تفعلوا ما بدا لكم - وقد فعلتم - (يتوجه إلى السماء) الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به

الرسول : ياسيدى الشيخ . . ما على الرسول إلا البلاغ

الناصر : مهلا

ابن الحاجب : (يكاد يبكى) : لا حول ولا قوة إلا بالله

الرسول : إن وراء السلطان قوة لا تجهل

ابن الحاجب : الله أقوى

الناصر : مهلا . . ماذا فى لقائكما ؟

العزز : قلت : لا أمل ولن أريه وجها عرف الاتجاه إلى الله .

(يدخل أحد جنود الناصر لاهثا مجهدا)

الجندى الآخر : مولاى الناصر

الناصر : ما وراءك ؟

الجندى الآخر : أريد أن أسر إليك

ابن الحاجب : ألمح الشر

العزز : لا شر بعد اليوم

الناصر (يتنحى جانبا بالجندى الآخر)

العزز : (لابن الحاجب) : إن الناصر داوود مخدوع فى استقلاله بالكرك . . لقد غره انصراف الفرنجة عنه . . إنهم يمكنون لقوتهم فى دمشق بعد أن استولوا على الحصون . . وبعد ذلك يجتاحون

ملكه .. إنهم لا أيمان لهم

الناصر : (يأمر الجندى بالانصراف .. ثم يتجه إلى رسول الصالح إسماعيل) : ما هذا ؟ ما الذى دفع جندكم إلى التحرش بخطوات شيخ الاسلام ؟

الرسول : (فى استخذاء واستحياء) لا علم لى بشىء

الناصر : إن هذا لهو المختل بعينه .. جنود وجواسيس تترسم خطى الشيخ وتبحث عنه فى كل مكان .. وإن صح ما بلغنى من توعد وتحين للقبض على الشيخ ، فستكون الطامة الكبرى ... عد الى مولاك وقل له : إن الحزم فى منع الجنود عن الشيخ عسى أن نسترضيه

الرسول : يا مولاى .. احذر خدع الشائعات .. ولا تنس ما بينك وبين الصالح نجم الدين

الناصر : بلغنى الآن مالا أرتاب فى وقوعه ، إن الفرنجة ما دخلت سياستهم فى شىء الا أفسدت عقول من يستطيبون توجيههم .. عد إلى مولاك وحذره اللعب بالنار .. إن تقاليدنا ودیننا يعافان الفتك والغدر بالأبرياء

الرســـول : إن العز أثار علينا دمشق وشوه سياستنا وأفسد خططنا (فى همس) ولا تنس ـ اتصاله بمصر والرسائل التى تتوافد عليه

النـــاصر : العز يدعو إلى وحدة المسلمين ويحثهم على دفع المغير من تتار وفرنجة . . إنه يثير الحمية الإسلامية وينمى النخوة الوطنية . . يخاف أن يتخطفنا كل واغل فى بلادنا

الرســـول : وبماذا تأمرنى يامولاى

(يلتفت العز ويصمت ابن الحاجب)

العـــــز : هيهات أن يكون لأمر الناصر جدوى

النـــاصر : وكيف أيها الشيخ ؟

ابن الحاجب : (للعز) : أعرف مكانة الناصر وقدر توجيهه

العـــــز : إن الصالح إسماعيل . . لن ينهض بوصاة الناصر لقد تسلط عليه هوى الخوف من الغزاة . . إنهم ليده التى يبطش بها وعينه التى يبصر بها وعقله الذى يفكر به

الرسول : إنك تبالغ يا سيدى الشيخ

الناصر : لا أظنه ينزل إلى هـذا الدرك ويبني ثورة العامة عليه

العز : ستريك الأيام

الناصر : أتاني من الأنباء ما أتى ولكن .. (للرسول) ارجع أيها الرسول إلى مولاك

الرسول : أأبلغه عصيان الشيخ ؟

الناصر : لا .. بل اطلب إليه أن يتريث

العز : بل بلغه خروجي عن طاعته وتمردي على سياسته تقربا إلى الله

ابن الحاجب : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

الرسول : ليأذن لي مولاي الناصر .. وأنت ياشيخنا العز عزيز علينا ألا تجيب

العز : لا يضار ناصح ولا يضام آبق من صفوف المستعبدين

الناصر : خفف القول أيها الرسول

ابن الحاجب : ومع اليوم غد (ينصرف الرسول ويصمت الجميع)

قطز : (يدخل) : السلام عليكم

الجميع : وعليك السلام

(يندفع بعض جنود الناصر وراءه)

جنـــــــدى: من تكون أيها الرجل ؟

العـــــــز : (فى اهتمام) تنح أيها الجندى

النـــــاصر : أتعرفه ؟

العـــــــز : إنه تلميذى و..

النـــــاصر : مكانكم أيها الجنود .. من تكون يارجل ؟

قطـــــــز : إننى من جنود الشيخ

ابن الحاجب : (للناصر) أبناء الشيخ وطلابه يملأون الأمكنة والبقاع

النـــــاصر : (فى اهتمام) : ليأذن لى أستاذنا العز بعض الوقت فرسول الصالح إسماعيل هناك فى قصره ، وبعد أن ألقاه عسى أن نوفق إلى حل

العـــــــز : إنك مشكور .. ولا أنسى لك فضل تكرمك وحسن رعايتك لابن الحاجب

ابن الحاجب : إنى لا أطمئن على بقاء العز هنا

قطـــــــز : لا تحذروا شيئا ، ولا يكن أمر حياطة الشيخ عليكم غمة

العـــــز : رعاك الله ياولدى .. أريد أن أنفرد وقتا بتلميذى هـذا

النـــاصر : أظنها خلوة . . صوفية

العـــــز : (لابن الحاجب) : أتمنى أن تجد راحتك فى قصر النـاصر

ابن الحاجب : همى أن أطمئن عليك

النـــاصر : لا تفكر كثيرا وفوق ما يتطلبه الموقف

العـــــز : إن الطريق طويلة والهدف لم يزل بعيدا على الرامى

النـاصر : بنا يابن الحاجب حتى يهدأ الشيخ بين مريديه ، وانصرافنا عنه الآن يرضيه

ابن الحاجب : كان بنفسى أن تصحبنا يا عز الدين

العـــــز : من الحزم أن أبقى هنا وقتا

النـــاصر : لعله لا يطول .. (فى طريق التحرك الانصراف)

العـــــز : أرجو ذلك

قطـــــز : إن شاء الله

(الناصر وابن الحاجب يمضيان ووراءهما الجنـود)

العـــــــز : مللت الانتظار وضقت من التخفى ياقطز ؟

قطـــــــز : خفف على ذلك أنى درست هنا منافذ الطريق وعرفت ما لم يتيسر لى من قبل ، والذين صحبتهم معى من مصر رجال أشـــداء المراس أقوياء العزائم ، ولكن . .

العـــــــز : ولكن ماذا ؟

قطـــــــز : أشك فى إخلاص صاحب الكرك وهو يصانع صاحب دمشق ويضيق بصاحب مصر

العـــــــز : لا يهمه إلا سلامة إمارته

قطـــــــز : وكفى بذاك ضعفـا . . أترانا سنترك له شيخ المـــالكية ؟

العـــــــز : إلى أجل وسوف يلحق بنا هناك فى القاهرة

قطـــــــز : إن شاء الله

العـــــــز : ابن الحاجب لا يرى الحياة إلا علما وبحثا ولقد لقيت من مؤازرته فى دمشق ومزاملته فى رحلتى هذه ما يجعلنى أحمد له همته . . وقبل ذاك زاملنى فى سجن دمشق حتى خلصنا معا وربما كان وجوده هنا يحول بين صاحب الكرك والانقلاب

ضـــد الصـــالح نجم الدين أيوب سلطان مصر
ولعلك لم تنس تاريخ الحزازات والانقلابات
والمناورات بين وارثى ملك صلاح الدين الأيوبى

قطـــــــز : رحم الله صلاح الدين . . . لقد خلف وراث
ملك لابناة جدد

العـــــــز : إن لنا فى مصر وسلطانها لأملا

قطـــــــز : هو ذاك ياسيدى . . . وأحب أن تحدد وقت
الرحيل ، فالقاهرة ترقب ساعة وصولك

العـــــــز : أنا فى شوق إلى القاهريين أن يعلم بمقدمنا الفتى
الفاضل ابن دقيق العيد والمحدث الحافظ زكى
الدين عبد العظيم المنذرى ؟

قطـــــــز : نادى المنادى فى القاهرة مذيعا خبر قدومك .
فأعلن صاحب الإفتاء بأنه سيتوقف عن الفتوى
إذا هبطت أرض مصر . . . احتراما لمقامك
وعلمـــك .

العـــــــز : حيا الله علماءكم ، أن مصركم ملتقى المفاخر . . .
وأملى إن يجمع الله فيه كل شتيت

قطـــــــز : أن مصر أصبحت كعبة القصاد من العلماء والمتصوفة وأحرار الرأى وقادة الفكر

المـــــــز : حفظها الله وحفظك ياولدى ورعى كل من يدافع عن حمى الاسلام وأوطان العروبة

(يقدم أحد الدراويش)

الدرويش : سيدى الشيخ . . . آن وقت التلاوة وحلت ساعة التهجد

المـــــــز : لتكن التلاوة فى هذه الخيمة القريبة .. أتصحبنى ياقطز ؟ (ينصرف الدرويش)

قطـــــــز : إن أذنت لى بالبقاء هنا كان أجدى

المـــــــز : أتخاف من شىء ؟

قطـــــــز : من أشياء . .

المـــــــز : من أشياء ؟

قطـــــــز : نعم على مقربة منا رجال من أتباع الصالح إسماعيل وشراذم من الفرنجة ولا تستبعد ما أرهص به رسول من أن الصالح إسماعيل بين خيامهم

المـــــــز : لعله ذاك . . وحتى تطمئن تأمر الدراويش . .

قطـــــــز : وحقك إلا تركت لى ولرجالى الذين يكمنون فى

المتعرجات والأودية مهمة حراستك وحياطتك .
وكل ما أرجوه منك أن ترحل عقب القرادة
والتهجد . . لقد دبرت كل شيء وعلى الله قصد
السبيل

العز : بعد خلوة قصيرة آمر أولادي بالذهاب للرحيل

قطز : ولتعلم سيدي أن رجال الصالح إسماعيل . . .
ليسوا إلا قوى دارت برءوسها الخمر ودب في
أوصالها سوس الترف . . . يكفي أن خيامهم
وهي على مقربة منا ـ تغص بزقاق الخمر وتطوف
بها النساء والولدان . . .

العز : وقانا الله شرهم .

قطز : سيرد الله كيدهم في نحرهم

العز : ولينصرن الله من ينصره . . (ينصرف الشيخ إلى
خيمته ويأخذ قطز في إعداد سيفه ويصفق خفيفا
فتظهر جماعة من الجنود كانت منبطحة على بعد
ويتقدمون إليه فيهمس في أذن كل منهم . . ويعودون
مسرعين) .

(يسمع صوت يردد آيات من القرآن)

(قطز منفردا تأخذه نشوة التلاوة)

الصـــوت : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا . .

صوت من الخيمة: (يسمع تكبير وتهليل) الله أكبر ، الله أكبر . .

(قسيس يمر ومعه إعرابى . . يمشيان الهوينى وهما فى شغل الا بالنظر الى الخيمة . . قطز يسمع حديثهما):

القسيس : يعجبنى هذا الهدوء وصفاء النسيم ويشوقنى أن أسمع كثيرا من هذا الصوت الجميل المرتل .

الأعـــرابى : (لنفسه) صدق الله العظيم ، ورتل القرآن ترتيلا

القسيس : إنى أشعر بحلاوة هذا الكلام . . من يكون صاحبـــه ؟ :

الأعـــرابى : إنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

القسيس : ومن الذى يسكن هذه الخيمة ؟

الأعـــرابى : ألا تعرفه ؟

القسيس : لا أعرفه

الأعـــرابى : إنه . . لا داعى

القسيس : قل لى بحقك وأنت على سره وسرك آمن

الأعـــرابى : إنه شيخ الاسلام . . العز بن عبد السلام

القسيس : آه . . عرفت . . من يطلبونه ويبحثون عنه

الأعـــرابى : (لنفسه) خسئت . . ما كان ينبغى لى أن أدلك على موضعه

القسيس : لا . . لا . . لن أدل عليه . . لست ممن ينكرون حق رجال دينهم ، لو كان عندنا مثله . . لجعلنا من أرواحنا فداء له . . أود أن ألقاه . . عد بى . . أو لا . . فقد يزعجه لقائى . . أيها الاعرابى إمض بنا الى مكان آخر . . حتى لا ننغص على الرجل خلوته وعبادته

الأعـــرابى : أشكرك أيها القس . .

(يأخذان فى السير . . شبحان يتمايلان ويقتربان)

جندى : ما أتى بنا فى تلك البقعة المليئة بالدراويش . . أين نحن من ليالى دمشق وغاداتها من كل فتانة فرنجية

جندى آخر : أليست معك بقية من خمرك ؟

الجندى الأول : معى . . وأطيب ما يكون شربها فى هذا المنعزل وقد سجى الليل

الجندى الآخر : هات ما معك

الجندى الأول : مل بنا إلى هذه النخلة فقد أتعبونا فى البحث عن شيخ الإسلام

الآخـــر : أرى شبحين ألا يكون .. ؟

الأول : فليكن .. ليشربا معنا

(جنديان آخران أخذ منها الشراب مأخذه .. يتمربان وهما ينشدان من شعر خليع بقطع الصمت المخيم)

الجنديان : لقد فتنتنى فرنجيـــــــــة

نسيم العبير بها يعبق

فنى ثوبها غصن ناعم .

وفى تاجها قمر مشرق

فان تلك فى عينها زرقة

فان سنان القنا أزرق

الأول : ألا تسمع .. مشتاقان قادمان .. إنهما من جنودنا جنهما الليل واشتد شوقهما إلى نساء الفرنجة اللائى يرفهن عنا .. بنا . وهات الكأس اليهما ..

إن صوتها لجميل

الآخـــــــر: لا بأس .. فلندركهما ولنعد الآن إلى مخيمنا نشرب ونغنى، ولنهرب من معركة شيخ الإسلام..
هيا .. هيا
(ينصرف الجنود السكارى وهم يغنون فى صوت مزعج)
وقطز فى عجب من أمرهم ثم يندفع أحد جنود قطز اليه)

قطـــــــز: من ؟

الكردى : عونك الكردى

قطـــــــز : أقبل (يتقدم الكردى) .. ماوراءك

الكردى : جنود الصالح إسماعيل ورجاله ومعهم الأمراء من حلب وحمص ودمشق خفوا الآن لمداهمة شيخ الإسلام فى خيمته

قطـــــــز: أواثق أنت ؟

الـــكردى : خذ حذرك .. وأخبر الشيخ وأيقظ زوجه وأطفاله ..

قطـــــــز: عد إلى اتباعى وبلغهم ... وأعدوا أنفسكم وحفز كل كمين وطئ بهم أجمعين .. خذوا الأهبة وانتظروا إشارتى

الكردى : سمعا وطاعة (يتقدم الشيخ فى خطوات منئدة فيلمح الكردى وهو يمرق كالسهم)

العـــــز : ماذا جد ياقطز ؟

قطـــــز : ياسيدى . . أين أولادك ؟

العـــــز : إنهم فى خيمتهم نائمون

قطـــــز : إن صاحب دمشق قد حشد جموعه ليرغموك على العودة

العـــــز : هيهات

قطـــــز : لقد أعددت لكل شىء عدته

(تسمع ضوضاء وجلبة من بعيد)

العـــــز : إنهم آتون

(تقترب الجلبة)

(يقدم نائب الصالح إسماعيل وحوله الأمراء وخلفه الجنود)

النـــائب : (يتقدم) . أما ترعوى يا ابن عبد السلام . . . فرغت من إثارة دمشق فجئت تثير « الكرك » وغدا تشعلها نارا فى مصر ولا أستبعد أن تذهب الى بغداد

العـــــــز : (فى ثبات المعتز) أحسن الله بى إذ وفقنى الى الخروج من البلد المسىء سلطانه

النـــــائب : أطلق السلطان سراحك من السجن وتطلق لسانك فى الإساءة اليه

العـــــــز : حملته ثورة العامة على أن يخلى سبيلى ... دعونى احقق أمل المسلمين .

النـــــائب : أأنت الذى تحقق صالح الإسلام والأوطان ؟

العـــــــز : نعم ... أنا وأمثالى من العلماء العاملين

النـــــائب : لقد أجاز علماء دمشق ما عقده السلطان من معاهدات وحالفات

العـــــــز : إنهم علماء السوء

النـــــائب : إنهم لا يقلون دراية عنك ... وإنهم يعرفون وجوب طاعة السلطان (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)

العـــــــز : إنهم يحرفون الكلم عن مواضعه .. فقل لصاحب دمشق وصنيعة الفرنجة: إنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق

النـــــائب : أنت مصر على الخروج الى مصر ؟

العـــــــز : ومصر على أن أستعين برجالها فى رد الكائدين للشرق والمغتصبين لحقوقه

النـــائب : ينبغى لك أن تراجع نفسك .. ولتعلم أنك فى قبضتى الآن وأستطيع إن أحملك ملففا فى خيمتك هذه كما أمر السلطان

العـــــــز : إنه واهم فى قوته (فى تهكم) هلا صرفتها يانائب رب دمشق إلى نائب رب السماء

قطـــــــز : (فى عجب ودهشة) نائب رب السماء ؟ يالله البلاء ..

العـــــــز : وشر البلية ما يضحك .. إن ملك التتار يزعم أنه نائب رب السماء ويدعو المسلمين الى الدخول فى طاعته. ابن قوة سلطانك؟ إنها فى شغل بسوق السلاح وحشد المتاع الى الفرنجة .. دعونا نعمل لله فى سبيل الشرق (يلتفت الى الأمراء) وأنتم يا أمراء الشام أكرهتم معه ؟ أما تستحثون النخوة الاسلامية والدم العربى حتى تستردوا قـــلاع الشقيف والصفد ؟

النـــائب : لقد غرك بالسلطان حلم أطال لك فى حبله

العـــــــز : عهدى به الضيق بالنصح ... والرضا بالتغرير

النـــائب : لم يبق فى قوس الصبر منزع

العـــــز : لقد قلنا ها كلمة عاملة سنصبب دونها الى آخر رمق فى حياتنا

النـــائب : لم يبق الا أن آمر جنودى بحمل خيمتك هذه الى دمشق وردك الى غيابة السجن

العـــــز : ياصاحب القوة .. القوة الواهية . . السجن أحب الى من الاستكانه الى طاعة الحاكم الأخرق الذى يبيع بلاده للاعداء لقاء عرض زائل وعون موهوم .. يرجو أن يتغلب به على ملوك المسلمين

النـــائب : يارجال . . باجنود . . (يشير الى الخيمة)

(قطز يهتف بعد أن سمع وهو فى تخف عنهم)

قطـــــز : يارجال الليل . . ياجنود النيل ،

(يسرع جنود قطز من كمينهم ويهجمون على جنود دمشق ويساعدهم فى ذلك الدراويش)

قطـــــز : عليهم ايها البواسل .. واجعلوا من جماجمهم وجثثهم مواطئا لاقدامكم .. وهيا بنا الى القاهرة .. هيا .. هيا

(تحف الدراويش بالشيخ ويحملونه على محفة ويهتفون)

الى القاهرة . . . الى القاهرة

(ستار)

الفصل الثالث

منزل الشيخ العز بحارة المبيضة بحى الجمالية جوار خانقاه الصوفية (بيت العبادة) الوقت أصيل . أريكة بفناء المنزل حولها حشيات وكراسى وخلفه مرتفع محاط بسور خشبي يصعد إليه على درجتين . باب يواجه الباب الخارجى للمنزل .

(طالبان يدخلان ويقفان قرب أريكة الشيخ .. يبدو الخادم ومعه منفضة)

الطالب الأول (لزميله) : أظن الشيخ وقد جدت هذه الأحداث سيؤجل حديث العصر ؟

« الثانى : تظن .. ؟ إن بعض الظن معصية

الخـــادم : مرحبا . معذرة .. سأنفض التراب

الطالب الأول: هل تأجل حديث العصر ؟

الخـــــــادم: (لم يفهم) أذن العصر وصليت مؤتما

الطالب الثانى : أمكم الشيخ ؟

الخـــــــادم: نعم . . (ويأخذ الخادم فى إزالة التراب

(يقدم ابن دقيق العيد)

الأول : هذا ابن دقيق العيد (ويهمس فى أذن صاحبه)

أرى على وجهه علائم التأثر

الثانى : صه

ابن دقيق العيد : السلام عليكم

الطـــالبان : وعليك السلام

ابن دقيق : أين شيخنا العز (الطالبان لا يجيبان)

(يلتفت ابن دقيق العيد إلى الخادم الذى

يتوقف شيئا)

الخـــــــادم: سأذهب لإحضار القهوة

ابن دقيق : لايزال شيخنا فى خلوته ؟

الخـــــــادم: أنه . . . (يتريث) سأذهب لآتيكم بالقهوة

ابن دقيق : أقول لك شيخنا فى خلوته ؟

الخـــــــادم: الشيخ . . . ؟

ابن دقيق : لماذا أنت مرتبك ؟

الخـــــــادم: أقول الحق . . لا أريد أن يخرج الشيخ اليوم

ابن دقيق : لماذا . . تكلم

الخـــــــادم: وماذا تصنع لو تكلمت ؟

ابن دقيق : أهناك ما يعقد لسانك ؟

الخـــادم : (ينظر الى الطالبين نظرة حذر) أتعرفهما ياسيدى

الطـــالبان : (فى صوت واحد) أفصح . . إننا من تلاميذ الشيخ

ابن دقيق : لا بأس عليك منهما

الخـــادم : مرت بنا عصائب من المماليك ورأيت فى أعينهم الشر

ابن دقيق : على الشيخ ؟

الخـــادم : كانوا يحملون العصى والخناجر

ابن دقيق : العصى والخناجر ؟!

الخـــادم : وفى أسرع من لمح البصر قلت لهم إن الشيخ ذهب إلى المدرسة الصالحية هناك بين القصرين فانصرفوا معجلين وحمدت الله على إزاحة شرهم

ابن دقيق : هل بلغت الشيخ ؟

الخـــادم : لو علم الشيخ . . إذن لخرج اليهم . . إنه لا يتهيب أحدا ولا يخشى جموع المماليك

ابن دقيق : حقا .. أولياء الله لا خوف عليهم .. إن الله معه

الخادم : ومعكم ياسيدى ، لا كانت مخافات المهالك ...

الطالبان : ليأذن لنا حتى ندرك هذه الشرذمة .. عسانا نقمع شرها

(يبدو الشيخ من الباب الداخلى)

الخادم : هذا هو سيدى الشيخ

الجميع : (يبدو عليهم الاهتمام) وقاه الله شر أعدائه

الشيخ : السلام عليكم يا أبنائى

الجميع : وعلى شيخنا السلام

الشيخ : ألم يحضر غيركم ؟ هيه .. إن الكرام قليل

ابن دقيق : سيدى الشيخ .. (لا يسمع الشيخ)

الشيخ : اجلسوا (يأخذ كل مجلسه) يابن دقيق العيد . أراك مهموما .. هل دقت عليك مسألة فى العلم

ابن دقيق : كيف .. لقد سهلت علينا ما صعب ويسرت العسير من المعضلات والمشكلات

العز : ما أبرك . بى ! (يلتفت الى الطالبين) إن مع العسر يسرا

الطالب الأول : ياسيدى لا يكن أمر الغوغاء غمة عليك

ابن دقيق : إنهم بغاوات

الطالب الثانى : سيرد كيدهم فى نحرهم

العـــــــز : أجل ضيعت على الظالمين حيلهم ودافعت بغيهم

ابن دقيق : حياك الله وأدامك حتى يعتدل بك ميزان العدل فى هذا البلد

الطالب الأول : لقى الناس الأمرين

العـــــــز : لقد رميت بآخر سهم

ابن دقيق : أجد شيء من أساليب المقاومة ؟

العـــــــز : ألم تعلم ؟

بن دقيق : كنت فى شغل ثم قضيت وقتا مع شيخ المالكية أبى عمرو بن الحاجب

العـــــــز : هل قص عليك أخبـــار الكرك ورحلته وما جرى ؟

ابن دقيق : نعم .. ومعه فى خانقاه الصوفية أبو الحسن الشاذلى مارا بالقاهرة فى طريقه إلى الاسكندرية قادما من الحج ، وهما فى شوق إلى لقائك

العـــــــز : وما منعك أن تدعوهما إلى منزلى ؟

ابن دقيق : دعوتهما فقالا : إنك فى شغل بتدبير القضاء وأمر الفتيا

العـــــز : من اليوم لن أشتغل بالقضاء . ألم أقل لك إنى رميت بآخر سهم ؟

ابن دقيق : هل اعتزلت القضاء بعد فرح الناس بعودتك إليه ؟

العـــــز : . . يابن . . لن أكون مطية لأغراض نائب السلطنة

ابن دقيق : فهمت السر

العـــــز : أى سر ؟

ابن دقيق : سر التظاهر من أتباع نائب السلطنة

العـــــز : متى كان هذا ؟

ابن دقيق : بلغنى الخادم حين قدمت الآن

العـــــز : (فى استخفاف) :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا

أبشر بطول سلامة يا مربع

(يلتفت إلى الطالبين) أنتما رسولاى إلى أستاذ الصوفية أبى الحسن الشاذلى وصديق شيخ المالكية ابن الحاجب . اذهبا اليهما إننى فى انتظار مقدم ابنى عبد اللطيف من مهمة

ابن دقيق : هلا بعثت إلى حتى أذهب معه ؟

العـــــز : كان الوقت ضيقا (يلتفت الى الطالبين) هيا .هيا

الطالبـــان : (معا): سمعا . . (ينصرفان)

ابن دقيق : ولدك شرف الدين عبد اللطيف .. أين مكانه؟ وما مهمته ؟ مرى أذهب اليه

العـــــز: تعرف أن نائب السلطنة بنى طباخانه فوق مسجد القاهرة ، ولقد حكمت باسقاطه ونزلت عن القضاء وأرسلت بمن يهدمون دار طبله وزمره وعلى رأسهم ولدى عبد اللطيف

ابن دقيق : وجب أن أقوم من فورى لأدرك . .

العـــــز: إنى فى حاجة إليك الآن

ابن دقيق : ستجدنى عند أمرك ورأيك

العـــــز: يا بنى . . إن السلطان نجم الدين قد استكثر من المماليك وأنت تعلم أنه اشترى ألفا وأسكنهم الروضة . . وترفهم بلغ درجة أثقلت مالية الدولة ونجم الدين مرهق بالمرض . . ونائب السلطنة ينفق باليمين والشمال .

ابن دقيق : وأدهى من ذلك أن جاريته شجر الدر استغلت

حب السلطان لها واتخذت حاشية من المماليك .
إنها تغريهم بجواريها الحسان وإنهم ليتنافسون فى إرضائها

العـــــــز: إذن أنت معى فى أن الحالة بحاجة الى إصلاح ومقاومة للفساد فاذا قويت أمتنا داخليا استطعنا أن نرد عليها هيبتها . . إن مصر هى الحصن الذى يدفع عن الشرق غائلة التتار . هذه بغداد وتلك دمشق . . العراق والشـــام أصبحا تحت رحمة المنزاحمين ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

ابن دقيق : ولكنك ياسيدى نزلت عن مكانك من قضاء مصر

العـــــــز: أيامى فى القضاء كانت فترة ابتلاء . . لابد من حل حاسم لوقف الجموح المسرف وردع المماليك .

ابن دقيق : أليس منهم قطز ؟

العـــــــز: قطز . . ليت لى منه ألفا . . إنه عضدنا فى حركتنا يا ابن دقيق العيد . . لابد أن أنفذ فكرتى فى بيع المماليك .

ابن دقيق : كيف وهم فى بروج مشيدة من المنعة والعزة والسيطرة

العـــــــز: إنه لا يعز على الله شيء .. ولست بداع إلى إثم أو جور، سيوافقني كل مصري، لأن المماليك لم يتحرروا بعد، ولا يصلح لهم بيع ولا شراء ولا تصرف من تصرفات الأحرار. إن المال الذي يدفعونه سيرد عليهم كرامة الآدمي فلا يظلون عبيدا

ابن دقيق : إن المملوك منهم يرى طريقه في الحكم موصولا بتبعيته لنائب السلطنة أو ملكيته لأمير أو إضافته إلى سلطان .. ويوم يتحرر يبعد عن مراقي الوصول إلى الحكم

العـــــــز: يوم تعدل الأوضاع تعود الأمور إلى مجاريها المعقولة

ابن دقيق : أخشى عليك عواقب سخطهم وغطرستهم ومصر في حاجة إلى عونك ورأيك .. وإن بغداد ودمشق والقاهرة ومن ورائها العراق والشام ومصر تتطلع إلى توجيهك في الحكم والرأي والفتيا .. والقول ما تقول ..

العـــــــز: إن كان ذلك فأول توجيه في صالح الاسلام والمسلمين أن يباع أو يكاتب كل مملوك ويضم ثمنه إلى بيت المال وينفق في صالح المسلمين، ثم ندبر

حركة تطهير الفساد ، ونسخر قوانا وقوى الأمة في مدافعة الصليبيين والتتار . . من أجل هذا كانت رحلتي إلى مصر .

(يدخل قطز في ارتياع)

قطـــــــز : السلام على سيدي الشيخ . . والسلام على ابن دقيق العيد

العـــــــز : وعليك السلام يا قطز . اجلس . (يجلس قطز على حشية .) شغلتك أمفاتن القصور عن الحضور

قطـــــــز : معاذ الله أن يشغلني عنك شاغل

ابن دقيق : شغلك حبك . . وإخلاصك لكبير مماليك شجر الدر . إنها تملك الجارية التي تحبها عساها تقربك إلى مني قلبك ... إنها فتاة جميلة ، أليس كذلك ؟

قطـــــــز : أراك تقسو علي . . ما كان الحب ليثنيني عن واجبي الديني بله الوطني

ابن دقيق : كل المماليك ذلك الرجل

قطـــــــز : إن مصر لها في عنق دين أي دين . . لقد آوتني من تشرد وكستني من عري وإنني من نسل ملوك

ابن دقيق : مملوك يريد أن يعلو إلى درجة الملوك

العـــــــز : إنه من نسل ملوك حقا ، وأتوقع له مستقبلا . .
بل أتوقع الخير على يديه لمصر

ابن دقيق : إذا كان هذا رأيك فلماذا (يتوجه إلى قطز)
يا قطز فترت همتك وأين نشاطك فى دعوة
الشيخ والترويج لها . . لماذا لا ترد عنه ما استطاعت
أيادى الشر وعوامل الدس عند السلطان نجم الدين ؟

قطـــــــز : وماذا أدراك أنى لا أعمل جاهدا ليلا ونهارا
على إحباط كل مؤامرة ضد شيخنا العز .

ابن دقيق : لا أدى لذلك أثرا

قطـــــــز : سوف ترى . . ولا تنس أنى لست نائب السلطان
انما أنا تابع لمملوك شجر الدر (أيبك التركمانى)
وحتى يأتى اليوم الذى أملك فيه أنفاذ أوامر
الشيخ ستجدنى ان شاء الله فاعلا

ابن دقيق : تلك همة المماليك وإن كانت فى ثوب مملوك

العـــــــز : ما أرى ابن دقيق العيد إلا مثيرا همتك . . .
لا يكن فى صدرك من كلامه أثر ، كلا كما يريد الخير
لى ولدعوتى . . يا قطز

قطـــــــز : أجل ياسيدى . .

العـــــــز : ماذا أعد السلطان من أمور وماذا أبرم ؟

قطـــــــز : أعلم أن الصالح أيوب غاد على سفـــر إلى الشام ليستشفى هناك ، وأن نفسه متغيرة عليك لتكرر اعتزالك القضاء ، وزاد تغيرة لأنك أغضبت نائب السلطنة وأمرت بهدم طبلخاناته وان شجر الدر وهى ذات حيل — بلغها أنك غير راض عن تصرفاتها .

ابن دقـــيق : وأنت تصانعها لأنها تملك الجارية التى تهواها : . وتدأب ليلا ونهارا للحصول على رضاها .

قطـــــــز : التى تتحدث عنها إن هى إلا ابنة خالى أسرت أنا وهى ، وتصرفت بنا المقادير بيعا وشراء حتى غدوت أنا مملوكا لايبك التركمانى وابنة خالى مملوكة لشجر الدر

ابن دقيق : معذرة ياقطز ، ما كنت أعلم

العـــــــز : عرفت يابن دقيق العيد . . أن قطزا له نسب وصهر فى الملوك . وأن من تعنيها ابنة خاله اغتصبا ولذا أعدهما الأحرار من

ابن دقيق : لك العذر ياقطز

قطـــــــز : أرجو أن تكتم عنى هذا

ولا بد من كذب فى الهوى

إذا كان درء الأذى بالكذب

العـــــــز : وعليك أن تحمل رسالة منى إلى السلطان

قطـــــــز : أبلغها بنفسى ؟

العـــــــز : لك الوسيلة .. فتخيرها كما تشاء

قطـــــــز : أمر سيدى

(العز يصفق)

الخـــادم : أجل ياسيدى

العـــز : قلم وقرطاس ودواة (يذهب الخادم لإحضارها)

(يدخل عبد اللطيف على والده فيرى قطز فيتغير وجهه)

العـــــــز : لا عليك منه ياولدى . . هـو على عهدك به . إنه معنا . (تهدأ ثائرة عبد اللطيف) . ماذا صنعت ؟

عبداللطيف : انتهى كل شىء . . هدمت الطبلخانة . ولقى الناس هذا الصنع بالحمد والشكر . هتف الهاتفون بحياتك

(يقدم الخادم ومعه الدواة والقرطاس والقلم)

العـــــــز : هات . . (يتناول ويكتب)

«(إلى الصالح نجم الدين من العز بن عبد السلام)
إن الإسلام فى خطر، والسلطان فى خطر. والاسلام
باق والسلطان فان . فليتظر السلطان أيهما
يؤثر والسلام»

(تعلو أصوات شيئا فشيئا ويطوى الرسالة بعد أن
يجففها على عجل) ياقطاز لتصل هذه إلى السلطان
عساه يتحول عن سفره

ابن دقيق : شاقته مواكب النصر فى دمشق . أيام أن طوح
بملك الصالح إسماعيل

قطـــــــز: السلطان نجم الدين لا يشوقه الا الشفاء، والأطباء
وصفوا الشام بطيب الهواء

ابن دقيق : والمماليك خدعهم المال

قطـــــــز: فيهم من لم تخدعه زخارف السلطان ولا سعة المال

عبد اللطيف : أظنك منهم ؟!

العـــــــز: نعم ياعبد اللطيف ... إلى شأنك

(ينصرف عبد اللطيف بعد أن يحيى الحاضرين)
وأنت ياقطز على بركة الله وأنفذ هذه الرسالة الى
السلطان

ابن دقيق : واحذر أن تصل اليها أى يد

قطـــــــز: أرسل متحايلا ولا توصه

العـــــــز: كان الله لنـــا ولك ياولدى . . . على بركة الله

(ينصرف قطز)

ابن دقيق : ياسيدى اتظن الصالح أيوب يرضى عن بيع المماليك؟

العـــــــز: سبق أن فاتحته وأفهمته أن المماليك اشتروا من بيت المال . . .

ابن دقيق : كان ذلك ؟

العـــــــز : نعم . . أبنت له وجهة نظرى وموقف الاسلام من تصرفاتهم وحقهم علينا كأناس ومواطنين

ابن دقيق : إنه يؤثر الأتراك والاكراد ويصانعهم

العـــــــز : ولا يمانع فى أن نفص خزائن الدولة بالمال

ابن دقيق : يرى إنفاذ ذلك شاقا ويخشى عواقب تذمر أمراء المماليك . . أيمكن التنفيذ ؟

العـــــــز : الأمر يسير . . من الآن نرسل مناديا تحت مراقبتك ومن الغد نجلس فى سوق الرقيق . . وعلى كل مملوك أن يقدم مما يملك قيمة ما يعتق به حتى يغدو حرا ونتفق ما نحصل عليه فى صالح المسلمين

ابن دقيق : ونائب السلطنة ؟

العـــــــز : سيكون أول من يدفع . . إن موعدهم الصبح . .
أليس الصبح بقريب ؟ هيا . . . هيا . . واستأجر
مناديا ينادى فى الأسواق . . عجل، عجل

ابن دقيق : بعد قليل سينطلق المنادى . . وأعوان نائب
السلطنة وجواسيسه يملأون الأزقة والحارات
ويطيرون إليه هذا النبأ وهو موتور من هدم
الطبلخانة وعزله .

العـــــــز : سيكون أضعف من ذبابة . . وستذهب حيله فى
وهن ما نسج العنكبوت . . . هيا . . هيا . . عجل

ابن دقيق : على السمع والطاعة . . سأدبر ذلك وأعود سريعا
(يخرج ويأخذ التفكير مأخذه من الشيخ العز . .
يقدم أبو الحسن الشاذلى وعمرو بن الحاجب فى
خرقة المتصوفة ومعهم عبد العظيم المنذرى . . .
ويسمع النداء خارج المنزل بعيدا)

أبو الحسن : السلام على سلطان العلماء

العـــــــز : وعلى شيخ الطريقة وعالم الحقيقة ثم على شيخ

المالكية السلام .. تفضلا .. تفضلا .. على الرحب والسعة . اجلس ياسيد العظيم

الشاذلى : طال شوقنا اليك

ابن الحاجب : وشقت على أيام بعدت فيها عنك

العـــــز : يابن الحاجب أفرغت من تأليف كتاب الكافية؟ نسيت أن أسالك يوم حضرت إلى القاهرة .

ابن الحاجب : الحمد الله . . لا عليك فأنت مشغول بعظائم الأحداث

العـــــز : (للشاذلى) . حج مبرور وعود حميد .. كيف حال الصوفية ياشيخ الشاذلية ومضيء الاسكندرية؟

الشاذلى : بخير .. وهنا أن تكون راضي النفس مطمئن البال

العـــــز : كيف الاطمئنان وما حققنا للإسلام شيئا ؟

الشاذلى : كان الله لك .. إن رحلتى فى داخل البلاد المصرية وأيامي التى قضيتها فى حـــج هذا العام اوقفتنى على مقدار ما يعلقه المسلمون عليك من الأمل

العـــــز : على أنا ؟ .. ياعجبا كان عليهم أن يرجوا على يديك الخير وأنت فى جماعة من العلمـــاء الصالحين

وعلى رأسهم أبو العباس المرسى والشيخ عبد العظيم المنذرى وأمثالهم من سادة العلوم الشرعية والعرفية وامراء الفهوم الربانية من كل ذى ورع كامل وبصيرة نفاذة .. أنتم ارباب البصائر

الشاذلى : حفظك الله ياسلطان العلماء .. لقد أبى شوقى وحنينى اليك أن أمر بمصر فى طريقى عائدا من الحج الى الاسكندرية دون أن ألقاك

العز : كيف وأنت هنا بالقرب من منزلى .. كنت أود أن أذهب إليك حافيا حاسر الرأس لأنك وافد من بيت الله الحرام ...

الشاذلى : لقينا كل إكرام فى خانقاه الصوفية وسعدنا فيها

العز : ان هذا البيت مؤسس على السعادة

المنذرى : أجل ... أسسه (سعيد السعداء) أحد رجال المنتصر الفاطمى فلما استقر صلاح الدين الايوبى فى مصر احاله الى دار للعبادة برسم الصوفية وأجرى عليه الاوقاف

الشاذلى : إذن فهو أول خانقاه فى الديار المصرية .. لقد أعجبنى من النازلين فيه أنهم أهل علم وورع وصلاح .

العـــــــز : لقد شرفتهم كما شرفتنى الآن .. وسيكون منزلى أسعد السعداء

الشاذلى : ومنزل أعلم العلماء

العـــــــز : أنت حسن الظن .

الشاذلى : أنت الذى حمل الرسول التحيات إليه . . .

العـــــــز (يرتعد) تحيات الرسول الى ابن عبدالسلام ؟

الشاذلى : ياسلطان العلماء . . الرسول صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام .

العـــــــز : (فى عبرة وهزة) : الرسول يقرىء مثلى السلام ؟

المنذرى : ليحظكم ياصديقى ما سمعنا . . والله إن هذا شىء يفرح به أن يكون فى هذا الزمن من يسلم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

العـــــــز : الله يسترنا

الشاذلى : وهذه رسالة القشيرى التى تحبها وتتبرك بنسخها إنها هديتى إليك (يتقبلها الشيخ بقبول حسن)

العـــــــز : يامؤسس الطريقة الشاذلية . . نريد أن نسمع منك

الشاذلى : أنتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم . . .

العـــــــز : مكثت أربعين عاما يشكل على الأمر فى طريق

القوم ، فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل عنى أشكال
حتى وردت علينا وما قطعك عنى إلا أيام الحج .
لقد أزلت عنا كل ما أشكل ، ورأيت الناس
يدعون إلى باب الله . . وأنت ...

الشاذلى : لاتخجلنا . .

(يدخل ابن دقيق العيد ماشيا على طرف أصابعه)

العـــــــز : وأنت يا أبا الحسن تدخلهم على الله

ابن دقيق : (كأنه أراد أن يعرف بمقدمه) صدقت ياسيدى
الشيخ . . والله مارأيت أعـــرف بالله من
الشيخ الشاذلى

أبو الحسن : وأنت أيضا تمدحنى ياتقى الدين يابن دقيق العيد
يافتى العلماء وفخر مصر بشهادة شيخك العز؟ .

المنذرى : أنت لاشك قطب الزمان

الشاذلى : . . والله لقد يسألونى عن المسألة لا يكون
لها جواب عندى

العـــــــز : فترى الجواب مسطرا في الحصير والحائط

المنذرى : تعالى الله . . واهب المنن

العـــــــز : لقد وسعت للسالكين الرحاب . وأتيت وأنت

الضرير بالعجب العجاب ، وأطنبت فى علم الحقيقة وطرقت كل باب . . يازين العارفين .

« تسمع جلبة وضوضاء . . يهم ابن دقيق العيد ثم ينهض متوجها إلى الباب الخارجى . . »

العـــــز : أريد أن تبقى فى القاهرة أياما قبل أن تسافر إلى الإسكندريه

الشـــاذلى : على أن تأذن لى فى سفر ابن الحاجب معى .

العـــز . لا بأس . . فالقاهرة تموج بالأحداث . . وابن الحاجب يضيق بمثل هذا الصراع القاسى . . إنه يهوى الهدوء إلى محابره ومؤلفاته . . أليس كذلك يابن الحاجب ؟

ابن الحاجب : هو ذاك ، فلم يبق لى فى العمر إلا بقية أريد أن أقضيها فى العلم والعبادة ، بعيدا عن صخب الناس وأحداثهم المروعة المؤسفة . (يلتفت ابن الحاجب إلى المنذرى) ويقرنى على هـــذا الشيخ عبد العظيم المنذرى

العـــــز : المنذرى فاقك فى الاعتكاف . وإنه لا يغادر

المدرسة الكاملية

الشـــاذلى : أحق ما بلغنى ؟

المنذرى : وما الذى بلغك . ؟

الشاذلى : يروى لى أن ابنك مات فأحضر لتصلى عليه فى المدرسة فلم تزد على أن ودعته بعد الصلاة بدمعة ثم عكفت على إلقاء درسك ولم تسر فى جنازته

(تبدو طوالع السلبية ويسبقها ابن دقيق العيد)

ابن دقيق : السلطان نجم الدين أيوب قادم . . على خفة .

العـــــز : أيمكن أن يكون قطز قد بلغه الرسالة ؟

ابن دقيق : ما أظن ذلك . . يحسن أن تلقاه بلين القول . . إن حدثك عن عزل نائب السلطنة

العـــــز . لن تكون منى مهادنة فى حق الله . . قبل أن يقدم السلطان أحب أن أكرم ضيق بابعادهم عن لقاء من لا يوفون بحق الله . . . ألا تتفضلون إلى خلوتى ؟

الشاذلى . أريد منك ألا تغلظ للحكام وأن تردهم بالتى هى أحسن ، وجادلهم بما يقوم وما هو أقوم

ابن الحاجب : هذا ما أردته من العز . . ولم يلق لى بالا .

ابن دقيق : أطمع فى بقائكم بحضرة الشيخ والسلطان، عسى الله أن يجرى على يديكم عدول شيخنا ورجوعه إلى قضاء القاهرة والوجه القبلى

الشاذلى : لا بأس إن رضى العز

العـــــز : لن أعود إلى مجلس القضاء وإن نزل السلطان عن ملكه لى

الشاذلى : على رسلك

الآذن (يقدم) : مولانا .. الصالح نجم الدين أيوب

العـــــز : ليتفضل

(يتقدم ابن دقيق العيد ومعه المنذرى وابن الحاجب ويظل الشاذلى والعز فى مكانهما ، حتى إذا قرب السلطان قام الشيخان وأجلسه العز بينهما بعد التحية والتسليم)

العـــــز : كيف حال سلطان مصر ؟

نجم الدين : حائل ينقصها .. رضى سلطان العلماء (العز لا يجيب)

الشاذلى : رضى الله عنك ما أرضيت العلماء وعملت بإرشادهم فى دينك ودنياك

نجم الدين : وهل لى أن أخالفهم فأفعل ما نهى الله عنه ؟

العـــــز : (فى حدة) لقد ركنت إلى بطانتك من المماليك والمحيطين بدهاليزك

نجم الدين : أنت تعرف قول الله : (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) والمماليك البحرية عاونونى حين وقعت فى شرك الأسر أنا وجاريتى شجر الدر عند مقدمى من الشام إلى مصر لتولى شأنها ، بدلا من أخى العادل الذى كان صغيرا ، فما يسعنى إلا الاحسان إليهم

العـــــز : وإن أساءوا ؟

نجم الدين : أخذتهم بذنبهم

العـــــز : إذن فما بال نائب السلطنة يبنى الطبلخانة فوق مسجد القاهرة ولا تأخذه بذنبه ؟

نجم الدين (يصمت قليلا) : وما بالك تعتزل القضاء وتقضى بعزله وما أذنت بذلك

العـــــز : لا يسعنى أن تأخذنى رأفة فى دين الله

الشاذلى : بعض الحدة يا سلطانان بالله عليكما . . وإلا تركنا مجلسكما

نجم الدين : يا شيخ الصوفية . لقد اتخذت من العز معزة لمصر وليته القضاء وبنيت مدرسة بين القصرين

ودعوت شيخ الشافعية لالقاء الدروس فيهـــا ،
وأمرت بأن يخطب العز فى جامع عمرو بن العاص
حتى أعوض عليه ما فقده من خطابة
جامع دمشق

العـــــــز : وأقمت قاعة الروضة ومتنزهاتها، وتحولت عن قلعة
الجبل واشتريت آلاف المماليك وأسرفت فى إرضاء
أهوائهم ونسيت . .

نجم الدين : نسيت ماذا ؟

العـــــــز : نسيت كل شىء . . إلا ...

نجم الدين : إلا إقامة المدارس الصالحية ، والآن تدرس فيها
المذاهب الأربعة . وعمارة أرض الروضة . . أنت
الذى نسيت أننى انتقمت الإسلام والمسلمين من
الصالح إسماعيل وأصبحت دمشق تابعة لمصر

العـــــــز : هل ضاقت بكم أبنية قلعة صلاح الدين الأيوبى
حتى تسرف فى الانفاق وتنشىء القصور لهؤلاء
المماليك الذين أبطرتهم النعمة ومردهم الترف

الشـــاذلى : إنه الأمر الواقع

ابن الحاجب : ياشيخ الاسلام . . ألا يحمد منه الاصلاح والتعمير

العـــــــز : يابن الحاجب . . لو كنت رأيت بذخ المماليك لنقمت عليهم احتجان المـــال وصرفه فى وجوه ما أنزل الله بها من سلطان . . الصيد واللهو والجوارى ... والطامة الكبرى الحانات !

نجم الدين : الحانات ؟

العـــــــز : نعم الحانات والزينات . . أنسيت يوم العيد والجنـــد حواليك والأمراء تقبـــل الأرض بين يديك (بحدة) يانجم الدين . . ماحجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوىء لك ملك مصر ثم تبيع الخمور وغيرها ؟

الشاذلى : نعوذ بالله

نجم الدين : ياسيدى أنا ماعملت هذا . . إنه من زمان أبى

العـــــــز : أأنت ممن يقولون « إنا وجدنا آباءنا على أمة »

ابن الحاجب : لا عذر لك أيها السلطان

الشاذلى : إلا هذا ياسلطان مصر وكنانة الله فى أرضه

نجم الدين : من الليلة سأرسم بأبطال الحانات

العـــــــز : وتعمل على مقاومة الخمور والفجور

نجم الدين : هو ذاك . . . وأرجو أن تعود إلى مجلس القضاء

العـــــــز : لن أعود إليه أبدا .

نجم الدين : كيف . . وإن رجاك الحسن ، ورغبت إليك ؟

الشاذلى : أرى الشيخ مصرا فليكتف السلطان بأن يواصل الدرس فى المدرسة الصالحية .

نجم الدين : حتى يراجع نفسه .

الشاذلى : كل يوم هو فى شأن . . أليس كذلك ياعز الدين ؟

العـــــــز : إن أهدافى لم تتحقق بعد .. وأنا من اليوم سأعمل لتحقيقها .

نجم الدين : وأنا معك ، والله معنا

ابن الحاجب : وليـنصرن الله من ينصره

الشاذلى : أريدك أن تشهدنا على أهدافك حتى نأخذ من السلطان موثقا بالعمل عليها

العـــــــز : أهدافى . . توحيد كلمة المسلمين ، وتكوين جبهة قوية من ملوك الشرق . وطرد الصليبيين من الشام ، وردهم عن محاولاتهم فى الاستيلاء على مصر ، وصد غارات التتار

نجم الدين : تلك غايتى وما أتمنى

العـــــــز : يعلم السلطان أن المتمنى لا يدرك غايته إلا

إلا اذا قدم العمل

الشاذلى : وقل اعملوا فسيرى الله عملكم

نجم الدين : سنعمل . . وقد عملنا

العـــــــز : وأنا سأرقب . .

نجم الدين : (بعد قليل) . ونائب السلطنة ؟

العـــــــز : لا أقبل فيه رجاء ، وإنى لأرد كل شفيع فيه

الشاذلى : لهذا وقت آخر

نجم الدين : إن رأيتم ذلك فأنا عند رأيكم . .

العـــــــز : أريد أن يقوم فى سوق الرقيق كغيره من المماليك، ويدفع من المال الذى يتصرف فيه مقدار ما يعتق به

نجم الدين (يهم بالوقوف) : ليأذن لى سلطان العلماء فى أن ينزل شيخ الصوفية وعالم المالكية ومن معهما فى ضيافتى . . . ولك ما ترى فى المماليك

العـــــــز : الرأى للشرع وصالح مصر

الشاذلى : ونحن ضيوف الخانقاه إلى أن نغادرها إلى الاسكندرية . . أزف وقت القراءة والذكر . . فلنذهب إلى بيت العبادة وضيافة الله

(يقوم السلطان ويودع فى شبه صمت يعود ابن دقيق العيد وابن الحاجب وعبد العظيم المنذرى إلى مكان العز وأبى الحسن الشاذلى وهما فى مقامهما)

الشـــاذلى : ليسمح لى سلطان العلماء . . أو ليصحبنا إلى الخانقاه

العـــــز : بنفسى أن أجلس معكما ساعة فى بيت العبادة . . سألحق بكما بعد قليل

(يخرج أبو الحسن ومن معه ويقوده العز حتى الباب ويعود بعد التوديع وهو غارق فى التفكير . . ثم يتجه إلى خلوته . . يدخل الخادم ويأخذ فى تنضيد الكراسى وإعداد الحشايا)

الخادم (يحدث نفسه فى صوت مسموع): الصالح أيوب يوسع على خدمه ويسكن الترك فى قصور مشيدة وأنا . . أنا خادم سلطان العلماء أقضى النهار وزلفا من الليل أنفض غبار السافيات من جبل المقطم . . الحمد لله على السراء الضراء .

(يتقدم نحوه عبد اللطيف ابن العز، فيسمع الخادم

يحدث نفسه . . فيتوقف قريبا منه)

الخـــادم : ليتنى كنت مملوكا لأيوب أو حتى لعز الدين أيبك التركمانى

(يرمى بالمنفضة على الحشية ويلتفت فى ضجر فيرى عبد اللطيف .. يؤخذ الخادم بالمفاجاة)

الخـــادم : (فى ارتياع) : ابن شيخنا، عبد اللطيف

عبد اللطيف : لماذا تذكر الصالح أيوب ؟

الخـــادم : لا كانت أيامه

عبد اللطيف : لمه ؟ هل منع عنك إمارة أو حرمك ولاية ؟

الخـــادم : إن هى إلا خواطر عابرة . . لقد كان هنا الصالح أيوب

عبد اللطيف : وطلبت منه أن يجعلك نائب السلطنة فأبى ؟

(يضحك ويربت كتف الخادم)

يخيل لى أنك طامع فى أن تتولى نيابة السلطنة بدلا من المعزول

خـــادم : أتسخر منى يا بن شيخى ؟

عبد اللطيف : لا .. وحياة الأتراك الذين أصاروا القاهرة مساخر ومهازل، وسخرت لهم الأموال

الخـــادم : وحق أبيك ليصبحن نادمين

عبد اللطيف : ولما ذا تذهب نفسك حسرات ؟

الخـــادم : اشد ما أنا خائف من عصاباتهم التي تزعجني ليلا ونهارا وتتحين إيقاع الأذى بالشيخ والدك سلطان العلماء وقاهر الدخلاء

عبد اللطيف : (في ابتسام) : وأين شجاعتك وبأسك الشديد؟

الخـــادم : كبرت سني

عبد اللطيف : إذن صبرا على ضر أيوب

الخـــادم : صبرا ... ذكرتني

عبد اللطيف : أي شيء تذكرته

الخـــادم : سمعت أحد الشعراء وقد وفد على مجلس الشيخ ومعه جمع من القاهرة يرفعون شكواهم ويستجيرون

عبد اللطيف : أتذكر شيئا مما سمعت ؟

الخادم : أذكر (يتريث قليلا) آه ...

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته ياشر مجلوب
قد آخذ الله أيوبا بفعلته فالناس كلهمو في ضر أيوب

عبد اللطيف : إذن فاحمد الله على أنك بعيد عن محنة أيوب . . وأعوان أيوب

الخادم : الحمد لله . .

عبد اللطيف : عليك إذن أن تلحق بالشيخ فى خلوته وتجهز له ماء وضوئه

الخادم : وأنت ؟

عبد اللطيف : دعنى هنا . . عسى أن يأتى أحد الطلاب . . أو بعض الراغبين فى لقاء الشيخ

الخادم : لا بأس . . (يمضى غير بعيد ثم يعود) سيدى . . أخشى عليك من

عبد اللطيف : لا تخش شيئا . . امض . . (يمضى الخادم ((يلتفت عبد اللطيف فاذا بنائب السلطنة وهو شاهر سيفه والغضب يقطر من سحنته)

نائب السلطنة : يابن الشيخ . . أين والدك ؟

عبد اللطيف وماذا تريد منه ؟

نائب السلطنة : هذا الشيخ عطل مصالحنا، وهدم ما أقنا ، وحرض علينا العامة ، وأثقل على السلطان

عبداللطيف : أثقل عليك . . أم أثقل على السلطان ؟

نائب السلطنة : بأى حق يعزلنى عن نيابة السلطنة؟ وبأى حق ينادى علينا بأمر هذا الشيخ لنباع فى الأسواق ونحن ملوك الأرض؟

عبد اللطيف : الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الأحرار

نائب السلطنة : ماذا تقول ؟

عبد اللطيف : القول ما قال الشيخ .. لا يصح لكم بيع ولا شراء ولا زواج.

نائب السلطنة : (فى لين بعد أن يغمد سيفه) : ياولدى . . قل لوالدك سأقطعه ضياعا وقصورا.. ولك معه ما تشاء .. خذ هذه وكن رسولى إليه (يمد يده بالبدرة)

عبد اللطيف : حذار ثم حذار من هذا (يرمى بالبدرة فى احتقار) لقد عقد والدى العزم على أن يعقد لكم مجلسا فى سوق الرقيق وينادى عليكم وتجمع الأموال لبيت مال المسلمين، وتكسر حدتكم وتثوب نفوسكم إلى الرشد.

نائب السلطنة (فى دهش): ثم ماذا يابن الشيخ ؟

عبد اللطيف : تحصلون على عتقكم بطريق شرعى

نائب السلطنة : فى ذلك ما يغضب السلطان

عبد اللطيف : السلطان رجع عن رأيه فيكم بعد أن أعلمه والدى بأنه إن لم يجب إلى ذلك خرج من القاهرة ووافق الشيخ والعلماء والصلحاء والتجار ونادى المنادى

نائب السلطنة : نحن الأمراء . . . كيف نباع ؟ . . أين والدك ؟ .

عبد اللطيف : ماذا تريد بأبى ؟ .

(يقبل الشيخ فى عمامته) ثم يمشى الهوينى وهو يتلو آيات من كتاب الله . . ويسمع طرفا من حوار ابنه ونائب السلطنة ، ويكون قطز قد قدم من الباب الثانى مختفيا)

العز (لنائب السلطان) : ما أتى بك ها هنا ؟ . أما سمعت المنادى ؟

النائب : أى شىء تعمل ؟

العـــــز : أنادى عليكم فى الأسواق

النائب : ففى ماذا تصرف الثمن ؟

العـــــز : فى مصالح المسلمين

لنائب : فمن يقبض الثمن ؟

العـــــز : أنا

لنائب : أنت مصر على هـــذه الغلظة ، وتكدير حياتنا وإهدار مصالحنا ؟

العـــــــز (بعد أن يهمس ابنه فى إذنه) : إننى لا أخشى شيئا فى سبيل الله

(يرتعد عبد اللطيف ويتعلق بأبيه)

يا ولدى أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله

(يتقدم قطز فى خفة ويسمع الكلمة الأخيرة)

نائب السلطنة : بعنيك هذا حل دملك

(يرفع يده فى حدة ويسل سيفه ليهوى به على الشيخ . . وفى اللحظة الأخيرة يصد قطز هذه الضربة بسيفه ، وبضربة أخرى ينزع السلاح من يده)

(يؤخذ نائب السلطنة وتخور قواه)

قطـــــــز : مرنى أضرب عنقه

نائب السلطنة : (فى فزع وتوسل وبكاء) : إعف عنى ياسلطان العلماء . . . اعف عنى . . اعف عنى

العـــــــز : فى سوق الرقيق . . . . . غدا فى سوق الرقيق

« ستار »

الفصل الرابع

بيت الوزارة بالقلعة . حجرة يوصل إليها ممر ، بها نوافذ صغيرة فيها أرائك . علق بحوائطها بعض السيوف . . . . وعلى منضدة وضع فوق غلالة سوداء مصحف حلى غلافه بالذهب ، على منضدة أخرى محبرة وقلم وصحائف وإضمامات تأخذ الداخل منها رهبة الانعزال والغموض . . على بابها حارسان شديدان فتلت سواعدهما . يفتح الباب قليلا . . يدخل الحارسان

الحارس الأول : هجع الناس وشق علينا الوقوف وليس فى الممر ما نستريح عليه

الحارس الثانى : أخشى أن يحضر سيف الدين على حين بغتة فيقد أضلاعنا بسيفه الذى أطاح رؤوس أمراء المماليك

الحارس الأول : ما أرى السلطان سيف الدين قطز فى حاجة إلى

السهر وقد استولى على عرش مصر وخلع عليا المنصور ابن أستاذه عز الدين أيبك التركمانى، وسيره هو وأهله بعيداً عن القاهرة .

(يخرج كل منهما كرسيا إلى الباب . يجلسان فى تشوف وحذر)

الحارس الأول (فى خوف) : لا تخف ..

الحارس الثانى (فى خوف) لا تخف أنت

(تسمع هفهفة شجرة وخفق خفيف فيقف كل منهما معدا سلاحه)

الحارس الأول (يضحك) : إنها هزة شجرة حركها الريح .

الحارس الثانى : كل شىء يوحى بالخوف ، حتى الشجرة تريد أن تسل من غصونها سيوفا علينا ؟

(يعودان إلى مكانيهما)

الحارس الأول: سيف الدين قطز موفور الحظ .

الحارس الثانى : قيض الله له شيخ الاسلام العز ابن عبد السلام فاقترح فى مجمع العلماء والأمراء بالقلعة أن يلى السلطنة نائبها .

الحارس الأول: مصر وأحداث الشرق فى حاجة إلى سلطان حازم قوى الشكيمة لا يهيب .

الحارس الثانى: سمعت (يلتفت حوليه فى حذر) وكشت ديديانا على حجرة الاجتماع بل الاجتماعات

الحارس الأول: ماذا سمعت ؟

الحارس الثانى: ملوك الشام بعثوا برسالة ضمنوها استجداء المعونة من مصر . وأنهم يستغيثون . ولهذا اقترح شيخ الاسلام العز تولية قطز

الحارس الأول: قل . . مولانا السلطان المظفر

الحارس الثانى: ما يسمعنا أحد . . لقد دوى صوت الشيخ (لا بد للناس من سلطان قادر يقاتل عن المسلمين) ويهزم التتار . ورد آخر بأن عليا المنصور بن أيبك التركمانى صبى لا يعرف شيئا . . وقطز نائب السلطنة إذا تولى عرش مصر استطاع جمع كلمة القادة والمحاربين ورد التتار

الحارس الأول: لقد والله لقينا ما لقينا وشهدت مصر العجائب فى السنوات الماضية .

الحارس الثانى: من يوم أن مات السلطان نجم الدين سنة ٦٤٧ وكانت المعارك دائرة بيننا وبين الصليبيين

الحارس الأول : رحم الله الصالح أيوب . على فكرة ما أثير في الاجتماع .

الحارس الثاني : اجتماعات .. قلت لك

« الأول : اجتماعات .. تذكرت أهوال الأشهر التي تولت فيها شجرة الدر زوج الصالح وضربت السكة باسمها وكانت العلامة والمناشير والتواقيع باسمها بعد أن عاونها المماليك . . حتى الصالحية ، على قتل توران شاه ولم يقض في الحكم غير سبعين يوما .

الحارس الثاني : وانتهى الأمر بقتل زوجها . أيبك التركماني . . أتظل مصر مضيعة لكل فتاك وغدار غلاب .

الحارس الأول: ولا تنس أن شيخ الاسلام لم يوافق على توليه امرأة وكأنه كان يستعجل الأيام التي يتولى فيها قطـــــز

الحارس الثاني : أتذكر أن خليفة بغداد — رحم الله الخلافه — أرسل يعاتب رجال مصر ويقول «إن كان ما بقي عندكم رجل تولونه فقولوا لنا نرسل اليكم رجلا »

الحارس الأول: ولهذا تنازلت شجرة الدر لزوجها أيبك التركماني .

فكان أول من أسس دولة المماليك، ولما أراد أن يستقل بالحكم دبرت قتله .

الحارس الثانى : حكم . . إنه أراد أن يرجع إلى زوجته (أم على) فضاقت المرأة وكان ما كان (إن كيدهن عظيم)

الحارس الأول: وثأر منها قطز الذى كان مخلصا لأستاذه وقتلت شجرة الدر . وألقيت فى مزبلة غير مستورة العورة ، وأقيم ابنه (على) بولاية قطز

الحارس الثانى : ما لنا ياأخى نتذاكر هذه الصور المخيفة والأحداث المحزنة . . أما يكفى خوفنا الذى يكاد يقتلنا ونحن أحياء . . هلا خضنا فى حديث جارية ؟ أو قصة حسناء عما يروى عن غانيات المماليك فى حى الروضة ؟

الحارس الأول: أسمع خطا قريبة ؟

الحارس الثانى : عساها تكون هرة

(يسمع صوت أقدام فيتأهب الحارسان يقدم بيبرس البندقدارى ومعه ابن دقيق العيد)

بيبرس : أيها الحارسان . . ما هذا . . من فتح الباب ؟

الحارسان : (فى تلعثم) إنه . . إنه الريح .

بيبرس : تنحيا (يلكم أحدهم) ولا يدخل أحد

(يمضى الحارسان ويغلق بيبرس الباب خلفهما ويقدم كرسيا لابن دقيق العيد . ثم يجلس إلى جواره ويلتفت اليه .)

أتلومنى فى سفرى إلى الشام ، وأنا الذى أنفت أن أقف فى صفوف شممت من ورائها تآمرا على المسلمين وخاصة المصريين

ابن دقيق : وكان من الخير لك ولمصر أن عدت الى قطز .

بيبرس : ولكن قطزا بعد أن خلع ابن أستاذه تحين الفرصة وأسرف فى قتل من بقى من الأعوان . . وكان الأمراء قد خرجوا للصيد . . أيرضى ذلك العز ؟

ابن دقيق : المهم توحيد كلمة المسلمين والدفاع عن الإسلام ومصر الآن موضع الأمل وموطن العز منذ سنة ٦٤٠ . . والشيخ أرهق نفسه فى سبيل إعلاء كلمة الاسلام وتوحيد الصفوف . وهاجم كل ظالم وبفضله أضحت الضرائب تنفق فى صالح المصريين

وخير المسلمين .. وكم كان موفقا فى مؤتمرات العلماء — بتوحيد الآراء .. ولا تنس يا بيبرس كفاحه فى إنشاء دار الوعظ

بيبرس : لقد أسخط الوعاظ

ابن دقيق : لأنه اشترط أن يختبر الواعظ فى حفظ القرآن الكريم

بيبرس : إنك تليذ الشيخ ، ومن المخلصين المروجين له .. حتى فى الإغلاظ علينا

ابن دقيق : الشيخ فى آخر ايامه وقد مرت به مآزم ومآزق تضطره إلى هذه الشدة ولا تنس أنه حزن كثيرا لموت صديقه ابن الحاجب وما برح حزينا على رغم مضى السنين

بيبرس : رحم الله ابن الحاجب .. وأظنه لا يزال حزينا على وفاة حبيبه الحسن الشاذلى

ابن دقيق : أطال الله بقاء شيخنا .. يا بيبرس .. كنى تقلبا فى البلاد وراء الأطماع وفيما تعهد به سيف الدين قطز ما يطمئن على مستقبلك واستقرارك

بيبرس : حقا .. إن الأحداث تقضى بالتعاون والفترة التى تجتازها مصر توجب علينا - ولو إلى حين — نسيان مآربنا

ابن دقيق : تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى

بيبرس : آه .. وفى النفس حاجات

ابن دقيق : يابيبرس .. التتار ملـــكوا من الشرق أحسنه خصوبة وأهلا ..

بيبرس : نعم .. أغاروا على ما وراء النهر وخراسان والعراق العجمى وأذربيجان وبلاد الرى

ابن دقيق : يا ويلهم أقاموا دولة ملؤها الرعب والتخريب والتقتيل .

بيبرس : لعنة الله على (جنكيز خان) الذى دوخ البلاد فى حكم دام عشرين عاما ثم خلف بعده (هولاكو)

ابن دقيق : أهلكه الله .. عبر جيشه الفرات وقضى على (بغداد) والخلافة ، وغدر بالخليفة المستعصم العباسى ومثل به بعد أن أمنه .. إنهم لا ايمان لهم مزقوا الشام، وها هو ذا سلطان دمشق يستغيثه بمصر

بيبرس : مصر التى حمت الاسلام وهزمت الصليبيين وسجنت لويس التاسع . إنها أحداث تقطع كبدى وتفرى قلبى وتثير حميتى .

ابن دقيق : وفى هذا ما يحتم اتحادكما واعتصامكما بحبل الله وقطع دابر التفرق لنظل مصر ملاذ العلماء ومرادا للثقافة الاسلامية التى غربت شمسها فى بغداد .

بيبرس : لا أكتمك .. فى نفسى شىء من شيخك العز

ابن دقيق : شيخى وشيخك وشيخ المسلمين

بيبرس : أجل .. أجل .. لكن تولية سيف الدين قطز تمت بمؤامرة من شيخى وشيخك وشيخ المسلمين

ابن دقيق : تسميها مؤامرة .. واسميها مؤازرة .. فلتجعلها منك موالاة ومعاونة فى سبيل مصر والشرق . قل أخلصت وانتهيت !

بيبرس : أخلصت لمصر وللشرق . وهذا سيفى وكتاب الله شاهد على أن أعمل للاسلام حتى آخر رمق من حياتى .

ابن دقيق : وبذلك يرضى عنك شيخ الاسلام

بيبرس : وأين مكان شيخ الاسلام ؟

ابن دقيق : إنه آت هنا

بيبرس : هنا فى هذه الحجرة كان يجتمع بقطز

ابن دقيق : لمصر وللاسلام والمسلمين

بيبرس : وسأجتمع بهما لمصر وللاسلام المسلمين

ابن دقيق : حييت وأهنيك بما أقطعك إياه قطز

بيبرس : تعنى مقاطعة قلبوب .. إنها كما يقول الأول
شغلت شمالى وبقيت يمينى فارغة

ابن دقيق : فلتشغل يمينك بجماجم التتار ولتجعل من رؤوسهم أكرا تلعب بها صوالجك ـ (يسمع نقر على الباب .. يدخل الحارس)

الحارس : شيخ الاسلام

(بيبرس وابن دقيق: يأخذان الأهبة ويمضيان إلى الشيخ ويعودان خلفه ثم يجلسان بعده وقد أخذ منه الاعياء)

العـــــز (فى صوت خافت) : يا بيبرس أرسلت إليك ابن دقيق العيد لأن الموقف فى حاجة إليك

بيبرس : أنا مجند فى سبيل مصر .. ومواهبى كلها رهن بما يشير به الشيخ

ابن دقيق : إن بيبرس يا سيدى الشيخ .. يتحرق شوقا إلى لقاء التتار وجيش هولاكو ـ الذى مزق الشام وطوح ببغداد .

العـــــز : هولاكو .. يهدد مصر .. آخر حصن يعتز به

الاسلام والمسلمون (لابن دقيق العيد) لعل
بيبرس قد اطمأنت نفسه وأرضيته وأرضاه قطز

البيبرس : كل حق لى ضربت عنه صفحا .. وسأعمل إلى
جانب سيف الدين قطز حفاظا على الوطن

العز : إنها دعوة الدين وواجب الوطن وحق الشرق ..
يا بيبرس .. كفى ما جره علينا تفرق سلاطين المسلمين ..
لقد مكنوا لهولاكوا من إتمام حلقات الشنائع
التى بدأها جنكيزخان بالقضاء على طائفة
الاسماعيلية - والاستيلاء على قلاعها والانسياب
فى موطن الاسلام (يصمت الشيخ فى حزن)
مزقت الشام .. وقضى على الخلافة وأخاف على مصر

بيبرس : أرجو أن تدعو لنا بالتوفيق فى جهاد العدو

العز : سأدعو .. وأدعو أن يوفقكم الله فى جهاد أنفسكم
وكبح مطامعكم . آه .. تقوس ظهرى ..
وأصبحت هامة اليوم أو غد - أمضيت فى مصر
قرابة العشرين عاما أكافح الأطماع والأهواء ..
إن أريد إلا الاصلاح .

بيبرس : ما دمت فينا .. فلن تسقط لنا راية وأنت صاحب الدعوة المجابة .

العز : أريد أن أتبين عملكم

بيبرس : اطمئن يا شيخ الاسلام

العز : أين انتصارات صلاح الدين الأيوبي .. آه .. أرهق التفرق الدولة الأيوبية وقضى عليها والآن ..

بيبرس : الآن أظلمت مصر دولة المماليك

العز : فليدفع شر التتار وليتقذ مصر شبلاها قطز وبيبرس

بيبرس : ثق بنا ياسيدى الشيخ .

العز : ليت لى بالحرب قوة . ليتنى أقوى على حمل السلاح

بيبرس : أترك فينا أمضى من سيف واصدق من جيش .

العز : الحمد لله .. وانت يابن دقيق العيد .. من الغد .. أذن فى الوعاظ والخطباء والأئمة بالدعوة للجهاد . ولتكن خطبهم فى حث المصريين على جمع الاموال والزاد وليقدم كل مايوجد وما تسمح به نفسه .

بيبرس : لنأخذ الأموال قسرا .

العز : حذار من التضييق على الناس يابيبرس .

ابن دقيق : انت ياسيدى الشيخ رئيس دار الوعظ فلتوجه إلى الوعاظ والخطباء مكتوبا برأيك .

العـــــز : أنا عندى فتواى فى مجلس الانقاذ .. ومؤتمر العلماء وفى عهد الحكام السابقين ولن احيد عن فتواى هنالك .

بيبرس : أعدها على ياسيدى لأسمعها ثانية .

العـــــز : أعدها يابن دقيق العيـــد .. ولتكن شهيدا .. ولتذكره دائما بأن ـ الضرائب لا ينبغى ان ترهق العامة فى سبيل كماليات الخاصة

ابن دقيق (يخرج ورقة من جيبه ويقرأ) ينفق من بيت المال حتى إذا لم يبق شيء أنفقتم أنتم أيها الامراء ومن فى حكمكم عن احتجنوا الاموال الطائلة .. من فوائضكم المذهبة وغيرها من الفضة والزينة ، وتساويتم بالعامة فى الملابس .

بيبرس (محتدا كعادته) : التساوى لا يمكن .

العـــــز : المساواة .. إلا فى الات الحرب فلكم أن تكثروا منها ماتشاءون واذا لم يبق للجندى سوى فرسه وسلاحه ساغ للحاكم حينئذ أن يأخذ من أموال العامة

ابن دقيق : ياسيدى الشيخ .. وقت الحرب

العـــــز : لا ترخص لهؤلاء المماليك فانهم يجمعون فوق طاقة العامة ويحتجن بعضهم الأموال والذخائر لتنافسهم

إن المال مال الجهاد .. مال الجهاد فى سبيل مصر والشرق لا الجهاد فى سبيل الأطماع الفردية .. إذا هجم العدو على مصر كان لزاما على كل قادر بل وقادرة أن يتقدم بنفسه ، ونفيسه .

بيبرس : الرأى ماترى .

الحارس : مولاى السلطان .

العـــــز (يشير) : تفضل ياسيف الدين .

(يدخل سيف الدين وبيده ورق مقوى .. يحيي ويسلم) لماذا أبطأت ؟

سيف الدين : كنت أقرأ البريد وأراجع بعض الرسائل وأضع الخطط .

بيبرس : ولم تشركى معك .

سيف الدين : سأطلعك على كل شيء ، فأنت من الآن ساعدى الأيمن .

العـــــز . مهلا يابيبرس .

بيبرس : لامهل بعد اليوم .

سيف الدين : تعجبنى لهفة بيبرس .. إنها رغبة تدعوه دائما للجهاد .. أعرفه من أيام الصبا وأعرف أن ثائرته

لا تهدأ الا بالجلاد .

ابن دقيق : وهـذا مـكان البـلاء .. إن جيش هولاكو أينعت رؤوسه وحان قطافها .

بيبرس : وإنى لصاحبها

العـــــــز: (يبتسم) ان شاء الله

سيف الدين : إن شاء الله ـ وما النصر إلا من عند الله

(يخرج صحيفة وينشرها أمام بيبرس ويشير الى بعض الأمكنة)

هنا عين جالوت .

بيبرس : نعم أحسن مكان وأدق خطة، فاذا انهزم العدو من هنا (يشير إلى الرسم الجغرافى) تابعته بفيلق وأتيت على بقاياه

العـــــــز : قل إن شاء الله

بيبرس : إن شاء الله

العـــــــز : جميل .. هذا الموضع على مقربة من مكان موقعة اليرموك المشرفة للتاريخ ومعركة حطين التى انصر فيها صلاح الدين

ابن دقيق : ومتى يصل جيشنا هناك حتى نعيد الإسلام عزه ؟ .. ونجعل التتار جنودا للمسلمين . بعد الانتصار

العـــــــز : بعد أن يتم التأهب

بيبرس : لا . لا .. نحدد من الآن .. يوشك عام ٦٥٨ أن يمضى نصفه .

سيف الدين : آمل أن تلقى العدو هناك فى رمضان

بيبرس : والناس صيام ؟

العـــــــز : به سينصركم الله

ابن دقيق : إن الصوم صبر والجهاد صبر ، ولن يهزم صبران

العـــــــز : وإذا عزمتم فتوكلوا على الله

سيف الدين : اللقاء فى العشر الأواخر من رمضان

بيبرس : هو ذاك (يدخل أحد أتباع بيبرس فى درعه وسلاحه بعد أن يستأذن ويهمس فى أذن بيبرس فيستأذن بيبرس) آه .. أمر يوجب انصرافى الآن . أتأذنون ـ ؟

سيف الدين : لا بأس وإلى عودة

(ينصرف بيبرس فى توديع سريع)

سيف الدين : ياسيدى الشيخ هل استقر رأيك ؟

العـــــــز : فى ماذا ياولدى ؟

سيف الدين : فى الخلافة ياسيدى ، قضى عليها فى بغداد ، وخير حصن لها الآن هو مصر

العـــــــز : ياسيف الدين .. موعدها العام القادم بعد أن يهزم التتار

ابن دقيق : إن شاء الله

العـــــــز : أملى أن يتم ذلك قبل أن أموت

سيف الدين : أطال الله بقاء الشيخ

العـــــــز : ياولدى .. الموت غاية كل حى (تدمع عينه)

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

سيف الدين : كأنك تعانى وأنا قادم على القتال ألا تشجعنى

العـــــــز . ياولدى .. لاخوف من لقاء الله

بن دقيق . على ذكر الموت .. خير لقائه فى الاستشهاد وإنها الجنة أفضل طريق اليها ما أظلته السيوف .. وإنى أحذرك أطماع بيبرس وشراسته ..

سيف الدين : أوه.. لا يضيرك.. أخذنا من الحياة حلوها وبلونا مرها . . ياصديق علم الله ويشهد الشيخ .. لا أجمع الراية والحكم فى يدى إلا لأهزم التتار وبعد ذلك ...

العـــــز: ماذا . . ؟

سيف الدين : أترك الأمر لبيبرس

العـــــز: دع الهواجس .. وامض على بركة الله

ابن دقيق : اكتم هذا عن الجند والقادة وإلا التفوا حول بيبرس .. والاختلاف يقضى على توفيق القيادة وتوحيدها

العـــــز: الرأى ما قال ابن دقيق العيد .. هل من جديد فى البريد ؟

سيف الدين : مزعجات .. صراخ من تكريت وتأوه من حلب وأنين من دمشق ، شنائع تروى ، وفظائع تمثل فى بلاد الساحل ، وأيضا فى بغداد

العـــــز: آه من عصيان الناصح .. آه يابلد الرشيد .. يالحصون المسلمين آه من رجال جعلوا بأسهم بينهم حتى مكنوا الأعداء منهم .

ابن دقيق : خفف على نفسك .

العـــــز : أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

الآن يتوجهون الى مصر . وقد كانوا عونا لمن يكيدها .

سيف الدين : مصر كفيلة بعونهم والكنانة فى حماية الله وسيصبح الشرق فى رعايتها

ابن دقيق : حقق الله بالمصريين للمسلمين الآمال

العـــــز : النصر آت والله ضامن له وإلا لايعبد فى أرضه إنه كتابه وإنه دينه . . تعالى الله . نزله وهوله حافظ . ولا يأس من روح الله وتأييده . . ياسيف الدين إن نصر الله المسلمين على يديك فاحفظ حقوقهم وارع جانبهم وعليك أن تقيل عثرة ملوك الشرق أجمعين ، لقد غلبوا على أمرهم وخدعتهم وعود الأعداء وغرر بهم الدخلاء واستغلهم النزلاء .

سيف الدين : ستجدنى فاعلا إن شاء الله . . ولن أقطع أمرا إلا بمشورتك .

العـــــــز : إن أدركنى يومك .. وإن أدركنى نصرك .. ونصر الله لك . . سأتمم مابدأته حتى تصفوا القلوب وتغمر العالم شمس الرسالة المحمدية ويومئذ يفرح المؤمنون بالتخلص من الخلافات . . فلا حول ولا قوة مع التفرق .

ابن دقيق : صدق رسول الله : (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل)

العـــــــز : صدق رسول الله وصدقت الأحداث

سيف الدين : سنضحى فى سبيل إعزاز الاسلام والمسلمين ولا نيأس ، فاليأس لا يجتمع والايمان .

العـــــــز : ياولدى .. واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا

ابن دقيق : الاتحاد شرعة نجت المسلمين الأولين وعصمت دماءهم وأموالهم وكرامتهم

سيف الدين : مع اليوم غد ، وسيعلم العالم أجمع أننا سنعيد سيرة الفتح الاسلامى .

الحـــارس (يدق الباب ويدخل) : كبير العسس يستأذن على السلطـان .

سيف الدين : ليدخل سريعا (يخرج الحارس)

ابن دقيق : أمر خطير

العـــز : ألم تقل ياسيف الدين إنك قضيت على التمرد والمتمردين ؟

(يدخل كبير العسس وينصرف الحارس)

كبير العسس يتراجع شيئا فشيئا وتأخذه هيبة العز ويخشى الإفصاح أمامه ، فينحنى ليهمس فى أذن سيف الدين) فى بيت أحد اتباع بيبرس يامولاى السلطان . . .

سيف الدين (مقاطعا) : ارفع صوتك بكل ماعندك (يتحفز ابن دقيق العميد ويظل شيخ الاسلام على هيئته يفكر)

كبير العسس : قدم الأمير بيبرس مسرعا إلى المنزل المجاور لبيت الوزراة حيث كان ينتظره كبير أتباعه وثلة من أعوانه .

سيف الدين (يلتفت الى شيخ الاسلام ويرى ارتياع ابن دقيق دقيق العميد وكأنه يريد أن يطمئن الشيخ على شدة

تحوطه وقوة إمعانه فى الرقابة) : وكيف وقفت على هذا ؟

كبير العسس (يأخذه بعض الحياء) أعفنى . . .

سيف الدين : أين عن وسائلك .

كبير العسس : وقفت على أخبار المجتمعين من إحدى الجوارى

سيف الدين : ليس هذا بجديد

كبير العسس : إنما الجديد يامولاى عودة الأمير بيبرس مسرعا مهتما من بيت الوزارة وهم على أهبة الخروج .

سيف الدين : وأين وجهتهم ؟

كبير العسس : قالت لى إنهم سيتجهون الى بيت الوزارة .

سيف الدين : وماذا ؟

كبير العسس : لم تعرف إلا أنهم يريدون مقابلتك

ابن دقيق : أتباعه مسلحون . ؟

كبير العسس : إنهم لا يضعون السلاح ليلا ولا نهارا

سيف الدين (يضحك) : لعلهم قبل الحرب يريدون أن يقضوا يوما فى اللهو والصيد ؛ طبعا أنتم على استعداد .

كبير العسس : أصدرت الأوامر للحرس ، وضاعفت القوة وأعددت كمينا حول البيت وفى المنافذ (حركة استخفاف من سيف الدين)

ابن دقيق : أرى سيف الدين غير عائى ؟

سيف الدين : لأنى معد لكل شىء عدته

ابن دقيق : وهل أعددت لمقاومة بيبرس إن خان العهد ؟

سيف الدين : بيبرس ومن معه لاحول لهم ولا طول . . إننا نحصى عليهم حتى أنفاسهم (يلتفت إلى كبير المماسن) عد الى رقابتك

كبير المماسن : (وهو يعود أدراجه) وعند مجيئهم الى هنا بماذا تأمرنى ؟

العـــــز : دعهم ولا تمنعهم

(يخرج كبير المماسن ، ويسود الصمت)

ابن دقيق : ياسيف الدين . . أخشرة من بيبرس ؟ . . قد يكون نقض العهد ويريد أن يقضى عليك وعلينا . . وليس بمستبعد أن يعاونه سائر الأمراء المؤتورين

العـــــز : دعهم ودعنى أتقدم اليهم .

سيف الدين : فداك دمى ياسيدى الشيخ . . وحقك لن ينجو منهم واحد إن أرادوا بنا شرا .

(يسمع خفق أقدام وجلبة ، يدخل بيبرس ووراءه الأمراء)

بيبرس : السلام عليكم

الجميع : وعليكم السلام

بيبرس : حضرت وأعوانى معى (تشرئب الأعناق وتسود الرهبة) لنشهد الله . .

ابن دقيق : (فى تخوف) على ماذا ؟

بيبرس : على أننا أخلصنا العزم وصممنا الرأى على قتال التتار

سيف الدين : حييتم من أبطال وجزاكم الله على همتكم خيرا

العـــــز : يابيبرس . . تقدم لأصافحك

سيف الدين : وليتقدم كل أمير لأقبل ما بين عينيه

(صوت من بعيد — فى مآذن القلعة) الصلاة خير من النوم . . . [يسود الصمت . .] تتقدم طائفة أخرى من أعوان سيف الدين فى جلبة

قائد : (فى ثورة) أين بيبرس . . لأضربن عنقه (يتلفت باحثا عنه) . . يتقدم شيخ الاسلام وسيف الدين ويمسكون به .

سيف الدين حذار

بيبرس . هذا رأسى إن كانت تخالجه خيانة أيها القائد

بن دقيق (يتعلق بالسيف) : إنه لقاء الصفاء على يد شيخ الاسلام (يصطف الجميع ويقف شيخ الاسلام)

العـــــــز: يارجال مصر .. لا ترجعوها عصبية بغيضة ، ولا تجعلوا للتفرق بينكم مكانا ، وابعدوا عن أنفسكم نزعات الشيطان ونفثات الأبالسة ، أنتم على أبواب حرب ضروس ، وأمامكم موقعة طاحنة إما النصر وهو فخر الأبد وإما الخذلان ولا مصير بعده إلا الذلة والهوان . . يامعشر المصريين الشرق أجمع بل العالم كله يرقب ما ينكشف عنه غبار الموقعة التى تقرر المصاير وتدفع عن المسلمين غائلة التتار . اسمعوا وعوا .

الجميع : سمعنا وأطعنا .. هذه سيوفنا بين يدك مرها إنها عطشى الى دماء التتار .

العـــــــز: بارك الله فيكم يامعشر المصريين وياحماة الاسلام والمسلمين .. إلى صلاة الفجر .. ثم الى التأهب وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . .

الجميع : عاشت مصر ، عاش الاسلام ، عاش شيخ الاسلام

العـــــــز: الى عين جالوت . . أنا ضامن لكم على الله النصر

(الجميع يرددون: إلى عين جالوت . . إلى النصر)